

متن عربی تفسیر المیزان

سوره نور

(هزینه استفاده از این جزوه : دعا برای امام زمان(عج))

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَ لَا تَأْخُذْكُمْ بِمَا رَأَيْتُمْ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لَيْشَهِدَ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَ حُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) وَ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَ لَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤)

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَ الَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاحَهُمْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَ الْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَ يَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَ الْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩)

وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ٧٨

بيان

غرض السورة ما ينبى عنه مفتتحها «سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَ فَرَضْنَاهَا وَ أَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» فهي تذكرة نبذة من الأحكام المفروضة المشرعة ثم جملة من المعارف الإلهية تناسبها و يتذكر بها المؤمنون.

و هي سورة مدنية بلا خلاف و سياق آياتها يشهد بذلك و من غرر الآيات فيها آية النور.

قوله تعالى: «سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَ فَرَضْنَاهَا وَ أَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» السورة طائفة من الكلام يجمعها غرض واحد سيقت لأجله و لذا اعتبرت تارة نفس الآيات بما لها من المعاني فقول: «فَرَضْنَاهَا»، و تارة ظرفاً لبعض الآيات ظرفية المجموع لبعض فقيل: «أَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ» و هي مما وضعه القرآن و سمي به طائفة خاصة من آياته و تكرر استعمالها في كلامه تعالى، و كأنه مأخوذ من سور البلد و هو الحائط الذي يحيط به سميت به سورة القرآن لإحاطتها بما فيها من الآيات أو بالعرض الذي سيقت له.

و قال الراغب: **العرض** قطع الشيء الصلب و التأثير فيه كعرض الحديد و فرض الزند و القوس. قال: و **الفرض** الإيجاب لكن الإيجاب يقال اعتباراً بوقوعه و ثباته، و **الفرض** بقطع الحكم فيه، قال تعالى: «سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَ فَرَضْنَاهَا» أي أوجبنا

العمل بها عليك. قال: و كل موضع ورد «فرض الله عليه» ففي الإيجاب الذي أدخله الله فيه، و ما ورد «فرض الله له» فهو في أن لا يحظره على نفسه نحو «ما كان على النبي» من حرج فيما فرض الله له». انتهى.

فقوله: «سورة أنزلناها و فرضناها» أي هذه سورة أنزلناها و أوجبنا العمل بما فيها من الأحكام فالعمل بالحكم الإيجابي هو الإتيان به و بالحكم التحريمي الانتهاء عنه.

و قوله: «و أنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون» المراد بها- بشهادة السياق- آية النور و ما يتلوها من الآيات المبينة لحقيقة الإيمان و الكفر و التوحيد و الشرك المذكورة لهذه المعارف الإلهية.

قوله تعالى: «الزانية و الزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة» الآية، الزنا

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ٧٩

المواقعة من غير عقد أو شبهة عقد أو ملك يمين، و الجلد هو الضرب بالسوط و الرأفة التحنن و التعطف و قيل: هي رحمة في توجع، و الطائفة في الأصل هي الجماعة كانوا يطوفون بالارتحال من مكان إلى مكان قيل: و ربما تطلق على الاثنين و على الواحد.

و قوله: «الزانية و الزاني» إلخ، أي المرأة و الرجل اللذان تحقق منهما الزنا فاضربوا كل واحد منهما مائة سوط، و هو حد الزنا بنص الآية غير أنها مخصصة بصور:

منها أن يكونا محصنين ذوي زوج أو يكون أحدهما محصنا فالرجم و منها أن يكونا غير حرين أو أحدهما رقا فنصف الحد.

قيل: و قدمت الزانية في الذكر على الزاني لأن الزنا منهن أشنع و لكون الشهوة فيهن أقوى و أكثر، و الخطاب في الأمر بالجلد متوجه إلى عامة المسلمين فيقوم بمن قام بأمرهم من ذوي الولاية من النبي و الإمام و من ينوب منابه.

و قوله: «و لا تأخذكم بهما رأفة في دين الله» إلخ، النهي عن الرأفة من قبيل النهي عن المسبب بالنهي عن سببه إذ الرأفة بمن يستحق نوعا من العذاب توجب التساهل في إذاقته ما يستحقه من العذاب بالتخفيف فيه و ربما أدى إلى تركه، و لذا قيده بقوله:

«في دين الله» أي حال كون الرأفة أي المساهلة من جهتها في دين الله و شريعته.

و قيل: المراد بدين الله حكم الله كما في قوله تعالى: «ما كان ليأخذ أخاه في دين المليك»: يوسف: ٧٤ أي في حكمه أي لا تأخذكم بهما رأفة في إنفاذ حكم الله و إقامة حده.

و قوله: «إن كنتم تؤمنون بالله و اليوم الآخر» أي إن كنتم كذا و كذا فلا تأخذكم بهما رأفة و لا تساهلوا في أمرهما و فيه تأكيد للنهي.

و قوله: «وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ» أي و ليحضر و لينظر إلى ذلك جماعة منهم ليعتبروا بذلك فلا يقتربوا الفاحشة.

قوله تعالى: «الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَ الزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَ حُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» ظاهر الآية و خاصة بالنظر إلى سياق ذيلها المرتبط بصدرها أن الذي تشمل عليه حكم تشريعي تحريمي و إن كان صدرها واردا في صورة الخبر فإن المراد النهي تأكيدا للطلب و هو شائع.

و المحصل من معناها بتفسير من السنة من طرق أئمة أهل البيت (ع) أن

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ٨٠

الزاني إذا اشتهر منه الزنا و أقيم عليه الحد و لم تتبين منه التوبة يحرم عليه نكاح غير الزانية و المشركة، و الزانية إذا اشتهر منها الزنا و أقيم عليها الحد و لم يتبين منها التوبة يحرم أن ينكحها إلا زان أو مشرك.

فالآية محكمة باقية على إحكامها من غير نسخ و لا تأويل، و تقييدها بإقامة الحد و تبين التوبة مما يمكن أن يستفاد من السياق فإن وقوع الحكم بتحريم النكاح بعد الأمر بإقامة الحد يلوح إلى أن المراد به الزاني و الزانية المجلودان، و كذا إطلاق الزاني و الزانية على من ابتلي بذلك ثم تاب توبة نصوحا و تبين منه ذلك، بعيد من دأب القرآن و أدبه.

و للمفسرين في معنى الآية تشاجرات طويلة و أقوال شتى:

منها: أن الكلام مسوق للإخبار عما من شأن مرتكبي هذه الفاحشة أن يقصدوه و ذلك أن من خبثت فطرته لا يميل إلا إلى من يشابهه في الخباثة و يجانسه في الفساد و الزاني لا يميل إلا إلى الزانية المشاركة لها في الفحشاء و من هو أفسد منها و هي المشركة، و الزانية كذلك لا تميل إلا إلى مثلها و هو الزاني و من هو أفسد منه و هو المشرك فالحكم وارد مورد الأعم الأغلب كما قيل في قوله تعالى: «الْحَبِيثَاتُ لِلْحَبِيثِينَ وَ الْحَبِيثُونَ لِلْحَبِيثَاتِ»: الآية: ٢٦ من السورة.

و منها: أن المراد بالآية التقييح، و المعنى: أن اللائق بحال الزاني أن لا ينكح إلا زانية أو من هي دونها و هي المشركة و اللائق بحال الزانية أن لا ينكحها إلا زان أو من هو دونه و هو المشرك، و المراد بالنكاح العقد، و قوله: «وَ حُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» معطوف على أول الآية، و المراد و حرم الزنا على المؤمنين.

و فيه و في سابقه مخالفتها لسياق الآية و خاصة اتصال ذيلها بصدرها كما تقدمت الإشارة إليه.

و منها: أن الآية منسوخة بقوله تعالى: «وَ أَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَ إِمَائِكُمْ».

و فيه أن النسبة بين الآيتين نسبة العموم و الخصوص و العام الوارد بعد الخاص لا ينسخه خلافا لمن قال به نعم ربما أمكن أن يستفاد النسخ من قوله تعالى: «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَنَّ وَ لِأُمَّةٍ مُّؤْمِنَةٍ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَ لَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَ لَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَ لَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ٨١

يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَ الْمَغْفِرَةَ بِإِذْنِهِ»: البقرة: ٢٢١، بدعوى أن الآية و إن كانت من العموم بعد الخصوص لكن لسانها أب عن التخصيص فتكون ناسخة بالنسبة إلى جواز النكاح بين المؤمن و المؤمنة و المشرك و المشركة، و قد ادعى بعضهم أن نكاح الكافر للمسلمة كان جائزا إلى سنة ست من الهجرة ثم نزل التحريم فلعل الآية التي نحن فيها نزلت قبل ذلك، و نزلت آية التحريم بعدها و في الآية أقوال أخر تركنا إيرادها لظهور فسادها.

قوله تعالى: «وَ الَّذِينَ يَزُمُونَ الْمَحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً» إلخ الرمي معروف ثم أستعير لنسبة أمر غير مرضي إلى الإنسان كالزنا و السرقة و هو القذف، و السياق يشهد أن المراد به نسبة الزنا إلى المرأة المحصنة العفيفة، و المراد بالإتيان بأربعة شهداء و هم شهود الزنا إقامة الشهادة لإثبات ما قذف به، و قد أمر الله تعالى بإقامة الحد عليهم إن لم يقيموا الشهادة، و حكم بفسقهم و عدم قبول شهادتهم أبدا.

و المعنى: و الذين يقذفون المحصنات من النساء بالزنا ثم لم يقيموا أربعة من الشهود على صدقهم في قذفهم فاجلدوهم ثمانين جلدة على قذفهم و هم فاسقون لا تقبلوا شهادتهم على شيء أبدا.

و الآية كما ترى مطلقة تشمل من القاذف الذكر و الأنثى و الحر و العبد، و بذلك تفسرها روايات أئمة أهل البيت (ع).

قوله تعالى: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» الاستثناء راجع إلى الجملة الأخيرة و هي قوله: «وَ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» لكنها لما كانت تفيد معنى التعليل بالنسبة إلى قوله: «وَ لَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا»- على ما يعطيه السياق- كان لازم ما تفيد من ارتفاع الحكم بالفسق ارتفاع الحكم بعدم قبول الشهادة أبدا، و لازم ذلك رجوع الاستثناء بحسب المعنى إلى الجملتين معا.

و المعنى: إلا الذين تابوا من بعد ذلك و أصلحوا أعمالهم فإن الله غفور رحيم يغفر ذنبهم و يرحمهم فيرتفع عنهم الحكم بالفسق و الحكم بعدم قبول شهادتهم أبدا.

و ذكر بعضهم: أن الاستثناء راجع إلى الجملة الأخيرة فحسب فلو تاب القاذف

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ٨٢

و أصلح بعد إقامة الحد عليه غفر له ذنبه لكن لا تقبل شهادته أبدا خلافا لمن قال برجوع الاستثناء إلى الجملتين معا.

و الظاهر أن خلافهم هذا مبني على المسألة الأصولية المعنونة بأن الاستثناء الواقع بعد الجمل المتعددة هل يتعلق بالجميع أو بالجملة الأخيرة و الحق في المسألة أن الاستثناء في نفسه صالح للأمرين جميعا و تعين أحدهما منوط بما تقتضيه قرائن الكلام، و الذي يعطيه السياق في الآية التي نحن فيها تعلق الاستثناء بالجملة الأخيرة غير أن إفادتها للتعليل تستلزم تقييد الجملة السابقة أيضا بمعناه كالأخيرة على ما تقدم.

قوله تعالى: «وَالَّذِينَ يَزُمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ- إِلَى قَوْلِهِ- مِنَ الْكَاذِبِينَ» أي لم يكن لهم شهداء يشهدون ما شهدوا فيتحملوا الشهادة ثم يؤديها إلا أنفسهم، و قوله: «فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ» أي شهادة أحدهم يعني القاذف و هو واحد أربع شهادات متعلقة بالله إنه لمن الصادقين فيما يخبر به من القذف.

و معنى الآيتين: و الذين يقذفون أزواجهم و لم يكن لهم أربعة من الشهداء يشهدون ما شهدوا- و من طبع الأمر ذلك على تقدير صدقهم إذ لو ذهبوا يطلبون الشهداء ليحضرهم على الواقعة فيشهدوهم عليها فالتعذر بتفرقهما- فالشهادة التي يجب على أحدهم أن يقيمها هي أن يشهد أربع شهادات أي يقول مرة بعد مرة:

«أشهد الله على صدقي فيما أقذفه به» أربع مرات و خامستها أن يشهد و يقول: لعنة الله علي إن كنت من الكاذبين.

قوله تعالى: «وَوَيْدَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ» إلى آخر الآيتين، الدرء الدفع و المراد بالعذاب حد الزنا، و المعنى أن المرأة إن شهدت خمس شهادات بإزاء شهادات الرجل دفع ذلك عنه حد الزنا، و شهاداتها أن تشهد أربع مرات تقول فيها: أشهد بالله إنه لمن الكاذبين ثم تشهد خامسة فتقول: لعنة الله علي إن كان من الصادقين، و هذا هو اللعان الذي ينفصل به الزوجان.

قوله تعالى: «وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ» جواب لو لا محذوف يدل عليه ما أخذ في شرطه من القيود إذ معناه لو لا فضل الله و رحمته و توبته

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ٨٣

و حكمته لحل بكم ما دفعته عنكم هذه الصفات و الأفعال فالتقدير على ما يعطيه ما في الشرط من القيود لو لا ما أنعم الله عليكم من نعمة الدين و توبته لمذنبكم و تشريعه الشرائع لنظم أمور حياتكم لزمتمكم الشقوة، و أهلكنكم المعصية و الخطيئة، و احتل نظام حياتكم بالجهالة. و الله أعلم.

(بحث روائي)

في الكافي، بإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر (ع) في حديث قال: و سورة النور أنزلت بعد سورة النساء، و تصديق ذلك أن الله عز و جل أنزل عليه في سورة النساء «وَاللَّاتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ- فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ- فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ- حَتَّىٰ يَتَوَقَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا» و السبيل الذي قال الله عز و جل «سُورَةُ

أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا- وَ أَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ- وَ لَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ- إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ- وَ لَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

و في تفسير القمي، و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (ع): في قوله: «وَ لَيَشْهَدَ عَذَابَهُمَا» يقول: ضربهما «طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» يجمع لهما الناس إذا جلدوا.

و في التهذيب، بإسناده عن غياث بن إبراهيم عن جعفر عن أبيه عن أمير المؤمنين (ع): في قول الله عز و جل: «وَ لَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ» قال: في إقامة الحدود، و في قوله تعالى: «وَ لَيَشْهَدَ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» قال: الطائفة واحد.

و في الكافي، بإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر (ع) في حديث قال: و أنزل بالمدينة «الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً- وَ الزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ- وَ حُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» فلم يسم الله الزاني مؤمنا و لا الزانية مؤمنة، و قال رسول الله ص ليس يمتري فيه أهل العلم- أنه قال لا يزني الزاني حين يزني و هو مؤمن، و لا يسرق السارق حين يسرق و هو مؤمن- فإنه إذا فعل ذلك خلع عنه الإيمان كخلع القميص.

و فيه، بإسناده عن زرارة قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عز و جل:

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ٨٤

«الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً» قال: هن نساء مشهورات و رجال مشهورون بالزنا- شهروا به، و عرفوا به- و الناس اليوم بذلك المنزل- فمن أقيم عليه حد الزنا أو متهم بالزنا- لم ينبغ لأحد أن يناكحه حتى يعرف منه التوبة:

أقول: و رواه أيضا بإسناده عن أبي الصباح عنه (ع) مثله

، و بإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر (ع) و لفظه: هم رجال و نساء- كانوا على عهد رسول الله ص مشهورين بالزنا- فنهى الله عن أولئك الرجال و النساء، و الناس اليوم على تلك المنزلة- من شهر شيئا من ذلك أقيم عليه الحد- فلا تزوجه حتى تعرفوا توبته.

و فيه، بإسناده عن حكيم بن حكيم عن أبي عبد الله (ع): في الآية قال: إنما ذلك في الجهر ثم قال: لو أن إنسانا زنى ثم تاب تزوج حيث شاء.

و في الدر المنثور، أخرج أحمد و عبد بن حميد و النسائي و الحاكم و صححه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و البيهقي في سننه و أبو داود في ناسخه عن عبد الله بن عمر قال: "كانت امرأة يقال لها: أم مهزول، و كانت تسافح الرجل و تشرط أن تنفق عليه- فأراد رجل من أصحاب النبي ص أن يزوجه- فأنزل الله:

«الرَّائِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ».

أقول: و روي ما يقرب منه عن عدة من أصحاب الجوامع عن مجاهد.

و فيه، أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال: "لما قدم المهاجرون المدينة- قدموها و هم بجهد إلا قليل منهم، و المدينة غالية السعر شديدة الجهد، و في السوق زوان متعائنات من أهل الكتاب، و أما الأنصار منهن أمية وليدة عبد الله بن أبي- و نسيكة بنت أمية لرجل من الأنصار- في بغايا من ولائد الأنصار- قد رفعت كل امرأة منهن- علامة على باجها ليعرف أنها زانية- و كن من أخصب أهل المدينة و أكثره خيرا.

فرغب أناس من مهاجري المسلمين فيما يكتسبن- للذي هم فيه من الجهد- فأشار بعضهم على بعض لو تزوجنا بعض هؤلاء الزواني- فنصيب من بعض أطعماتهن- فقال بعضهم: نستأمر رسول الله ص فأتوه فقالوا: يا رسول الله قد شق علينا الجهد و لا نجد ما نأكل، و في السوق بغايا نساء أهل الكتاب و ولائدهن- و ولائد الأنصار يكتسبن لأنفسهن- فيصلح لنا أن نتزوج منهن فنصيب من فضول ما يكتسبن- فإذا وجدنا عنهن

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ٨٥

غنى تركناهن- فأنزل الله: «الرَّائِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا» الآية «فحرم على المؤمنین- أن يتزوجوا الزواني المسافحات العالونات زانهن.

أقول: و الروايتان إنما تذكران سبب نزول قوله: «الرَّائِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ» دون قوله: «الرَّائِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانِيَةٌ أَوْ مُشْرِكَةٌ» و في المجمع،": في قوله تعالى: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا- اختلف في هذا الاستثناء إلى ما ذا يرجع على قولين: أحدهما أنه يرجع إلى الفسق خاصة دون قوله: «و لَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا»- إلى أن قال-

و الآخر أن الاستثناء يرجع إلى الأمرين- فإذا تاب قبلت شهادته حد أم لم يحد- عن ابن عباس- إلى أن قال- و قول أبي جعفر و أبي عبد الله (ع).

و في الدر المنثور، أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر عن سعيد بن المسيب قال: شهد على المغيرة بن شعبه ثلاثة بالزنا و نكل زياد- فحد عمر الثلاثة، و قال لهم: توبوا تقبل شهادتكم- فتاب رجالان و لم يتب أبو بكره فكان لا تقبل

شهادته، و كان أبو بكره أخوا زياد لأمه- فلما كان من أمر زياد ما كان- حلف أبو بكره أن لا يكلمه أبدا فلم يكلمه حتى مات.

و في التهذيب، بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله (ع) قال: إذا قذف العبد الحر جلد ثمانين. و قال: هذا من حقوق الناس.

و في تفسير القمي: في قوله تعالى: «و الَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ»- إلى قوله- «إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ» فإنها نزلت في اللعان فكان سبب ذلك- أنه لما رجع رسول الله ص من غزوة تبوك- جاء إليه عويمر بن ساعدة العجلاني و كان من الأنصار- و قال: يا رسول الله- إن امرأتي زنى بها شريك بن السمحاء- و هي منه حامل فأعرض عنه رسول الله ص- فأعاد عليه القول فأعرض عنه- حتى فعل ذلك أربع مرات.

فدخل رسول الله ص منزله فنزلت عليه آية اللعان- فخرج رسول الله ص و صلى بالناس العصر، و قال لعويمر: ائتني بأهلك فقد أنزل الله عز و جل فيكما قرآنا- فجاء إليها و قال لها: رسول الله يدعوك- و كانت في شرف من قومها فجاء معها جماعة- فلما دخلت المسجد قال رسول الله ص لعويمر: تقدم إلى المنبر و التعننا- فقال: كيف

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ٨٦

أصنع؟ فقال: تقدم و قل: أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميتها به- فتقدم و قالها، فقال رسول الله ص: أعدها- فأعادها حتى فعل ذلك أربع مرات فقال له في الخامسة: عليك لعنة الله إن كنت من الكاذبين فيما رميتها به- فقال في الخامسة- إن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما رماها به. ثم قال رسول الله ص: إن اللعنة موجبة إن كنت كاذبا.

ثم قال له: تنح فتنحى ثم قال لزوجته: تشهدين كما شهد، و إلا أقمت عليك حد الله- فنظرت في وجوه قومها فقالت: لا أسود هذه الوجوه في هذه العشية- فتقدمت إلى المنبر و قالت: أشهد بالله أن عويمر بن ساعدة من الكاذبين فيما رماها، فقال لها رسول الله ص: أعيدتها- فأعادتها حتى أعادتها أربع مرات، فقال لها رسول الله ص: العني نفسك في الخامسة إن كان من الصادقين- فيما رماك به، فقالت في الخامسة- إن غضب الله عليها إن كان من الصادقين فيما رماها به، فقال رسول الله ص: و يلك إنها موجبة إن كنت كاذبة.

ثم قال رسول الله ص لزوجها: اذهب فلا تحل لك أبدا. قال: يا رسول الله فمالي الذي أعطيتها. قال: إن كنت كاذبا فهو أبعد لك منه، و إن كنت صادقا فهو لها بما استحلتت من فرجها.

الحديث.

و في الجمع، في رواية عكرمة عن ابن عباس: قال سعد بن عبادة لو أتيت لكاع و قد يفخذها رجل - لم يكن لي أن أهيجه حتى آتي بأربعة شهداء- فوالله ما كنت لآتي بأربعة شهداء- حتى يفرغ من حاجته و يذهب، و إن قلت ما رأيت إن في ظهري لثمانين جلدة.

فقال النبي ص: يا معشر الأنصار ما تسمعون إلى ما قال سيدكم؟ فقالوا: لا تلمه فإنه رجل غيور- ما تزوج امرأة قط إلا بكرا، و لا طلق امرأة له فاجترأ رجل منا أن يتزوجها، فقال سعد بن عبادة: يا رسول الله بأبي أنت و أمي- و الله إني لأعرف أنها من الله و أنها حق- و لكن عجبت من ذلك لما أخبرتك، فقال: فإن الله يأبى إلا ذلك، فقال: صدق الله و رسوله. فلم يلبثوا إلا يسيرا حتى جاء ابن عم له يقال له: هلال بن أمية من حديقة له- قد رأى رجلا مع امرأته- فلما أصبح غدا إلى رسول الله ص فقال: إني جئت أهلي

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ٨٧

عشاء فوجدت معها رجلا- رأيت به عيني و سمعته بأذني، فكره رسول الله ص حتى رئي الكراهة في وجهه- فقال هلال: إني لأرى الكراهة في وجهك- و الله يعلم إني لصادق، و إني لأرجو أن يجعل الله فرجا- فهم رسول الله ص بضربه.

قال: و اجتمعت الأنصار و قالوا: ابتلينا بما قال سعد أ يجلد هلال و يبطل شهادته؟ فنزل الوحي و أمسكوا عن الكلام- حين عرفوا أن الوحي قد نزل- فأنزل الله تعالى: «و الَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاحَهُمْ» الآيات.

فقال (ص): أبشر يا هلال فإن الله تعالى قد جعل فرجا- فقال: قد كنت أرجو ذلك من الله تعالى، فقال (ص): أرسلوا إليها فجاءت فلاعن بينهما- فلما انقضى اللعان فرق بينهما و قضى أن الولد لها- و لا يدعى لأب و لا يرمى ولدها. ثم قال رسول الله ص: إن جاءت به كذا و كذا فهو لزوجه- و إن جاءت به كذا و كذا فهو للذي قيل فيه.:

أقول: و رواه في الدر المنثور، عن عدة من أرباب الجوامع عن ابن عباس.

[سورة النور (٢٤): الآيات ١١ الى ٢٤]

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِنَّ خَيْرًا وَ قَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَوْ لَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ

فِي الدُّنْيَا وَ الآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفْضَلْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥)

وَ لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الآيَاتِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَ الآخِرَةِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَ لَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَ لَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَ الْمَسَاكِينَ وَ الْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لِيَعْلَمُوا أَنَّ شَيْئًا أَوْلَىٰ لِيُصَفِّحُوا أَوْ لَا تُحِبُّونَ أَنْ يَعْفَرَ اللَّهُ لَكُمْ وَ اللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَ الآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُؤْفِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥)

الْحَبِيثَاتِ لِلْحَبِيثِينَ وَ الْحَبِيثُونَ لِلْحَبِيثَاتِ وَ الطَّيِّبَاتِ لِلطَّيِّبِينَ وَ الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦)

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ٨٩

بيان

الآيات تشير إلى حديث الإفك، و قد روى أهل السنة أن المذدوفة في قصة الإفك هي أم المؤمنين عائشة، و روت الشيعة أنها مارية القبطية أم إبراهيم التي أهداها مقوقس ملك مصر إلى النبي ص، و كل من الحديثين لا يخلو عن شيء على ما سيحيى في البحث الروائي الآتي.

فالأحرى أن نبحت عن متن الآيات في معزل من الروايتين جميعا غير أن من المسلم أن الإفك المذكور فيها كان راجعا إلى بعض أهل النبي ص إما زوجه و إما أم ولده و ربما لوح إليه قوله تعالى: «وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ» و كذا ما يستفاد من الآيات أن الحديث كان قد شاع بينهم و أفاضوا فيه و سائر ما يورثه إليه من الآيات.

والمستفاد من الآيات أنهم رموا بعض أهل النبي ص بالفحشاء، وكان الرامون عصابة من القوم فشاع الحديث بين الناس يتلقاه هذا من ذلك، وكان بعض المنافقين أو الذين في قلوبهم مرض يساعدون على إذاعة الحديث حبا منهم أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا فأنزل الله الآيات و دافع عن نبيه ص.

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ» إلخ، الإفك على ما ذكره الراغب الكذب مطلقا والأصل في معناه أنه كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه كالاتقاد المصروف عن الحق إلى الباطل- والفعل المصروف عن الجميل إلى القبيح، والقول المصروف عن الصدق إلى الكذب، وقد استعمل في كلامه تعالى في جميع هذه المعاني.

و ذكر أيضا أن العصابة جماعة متعصبة متعاضدة، و قيل: إنها عشرة إلى أربعين.

و الخطاب في الآية و ما يتلوها من الآيات لعامة المؤمنين ممن ظاهره الإيمان أعم من المؤمن بحقيقة الإيمان و المنافق و من في قلبه مرض، و أما قول بعضهم: إن المخاطب

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ٩٠

بالخطابات الأربعة الأولى أو الثاني و الثالث و الرابع النبي ص و المقدوفة و المقذوف ففيه تفكيك بين الخطابات الواقعة في الآيات العشر الأولى و هي نيف و عشرون خطابا أكثرها لعامة المؤمنين بلا ريب.

و أسوأ حالا منه قول بعض آخر إن الخطابات الأربعة أو الثلاثة المذكورة لمن ساءه ذلك من المؤمنين فإنه مضافا إلى استلزامه التفكيك بين الخطابات المتوالية مجازفة ظاهرة.

و المعنى: إن الذين أتوا بهذا الكذب- و اللام في الإفك للعهد- جماعة معدودة منكم مرتبطب بعضهم ببعض، و في ذلك إشارة إلى أن هناك تواطؤا منهم على إذاعة هذا الخبر ليطعنوا به في نزاهة بيت النبي ص و يفضحوه بين الناس.

و هذا هو فائدة الخبر في قوله: «إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ» لا تسليية النبي ص أو تسليية و تسليية من ساءه هذا الإفك كما ذكره بعضهم فإن السياق لا يساعد عليه.

و قوله: «لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» مقتضى كون الخطاب لعامة المؤمنين أن يكون المراد بنفي كونه شرا لهم و إثبات كونه خيرا أن المجتمع الصالح من سعادته أن يتميز فيه أهل الزيغ و الفساد ليكونوا على بصيرة من أمرهم و ينهضوا لإصلاح ما فسد من أعضائهم، و خاصة في مجتمع ديني متصل بالوحي ينزل عليهم الوحي عند وقوع أمثال هذه الوقائع فيعظهم و يذكرهم بما هم في غفلة منه أو مساهلة حتى يحتاطوا لدينهم و يتفطنوا لما يهمهم.

و الدليل على ما ذكرنا قوله بعد: «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ» فإن الإثم هو الأثر السيئ الذي يبقى للإنسان عن اقتراح المعصية فظاهر الجملة أن أهل الإفك الجائين به يعرفون بإثمهم و يتميزون به عندكم فيفتضحون به بدل ما أرادوا أن يفضحوا النبي ص.

و أما قول من قال: إن المراد بكونه خيرا لهم أنهم يثابون بما اتهموهم بالإفك كما أن أهل الإفك يتأثمون به فمبني على كون الخطاب للمتهمين خاصة و قد عرفت فساده.

و قوله: «و الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ» فسروا كبره بمعنى معظمه

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ٩١

و الضمير للإفك، و المعنى: و الذي تولى معظم الإفك و أصر على إذاعته بين الناس من هؤلاء الآفكين له عذاب عظيم.

قوله تعالى: «لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ» توبيخ لهم إذ لم يردوا الحديث حينما سمعوه و لم يظنوا بمن رمي به خيرا.

و قوله: «ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ» من وضع الظاهر موضع المضمرة، و الأصل «ظننتم بأنفسكم» و الوجه في تبديل الضمير وصفا للدلالة على علة الحكم فإن صفة الإيمان رادعة بالطبع تردع المتلبس بها عن الفحشاء و المنكر في القول و الفعل فعلى المتلبس بها أن يظن على المتلبسين بها خيرا، و أن يجتنب القول فيهم بغير علم فإنهم جميعا كنفس واحدة في التلبس بالإيمان و لوازمه و آثاره.

فالمعنى: و لو لا إذ سمعتم الإفك ظننتم بمن رمي به خيرا فإنكم جميعا مؤمنون بعضكم من بعض و المرمي به من أنفسكم و على المؤمن أن يظن بالمؤمن خيرا و لا يصفه بما لا علم له به.

و قوله: «قَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ» أي قال المؤمنون و المؤمنات و هم السامعون- أي قلتم- هذا إفك مبين لأن الخبر الذي لا علم لمخبره به و الدعوى التي لا بينة لمدعيها عليها محكوم شرعا بالكذب سواء كان بحسب الواقع صدقا أو كذبا، و الدليل عليه قوله في الآية التالية: «فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ».

قوله تعالى: «لَوْ لَا جَاءُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ» أي لو كانوا صادقين فيما يقولون و يرمون لأقاموا عليه الشهادة و هي في الزنا بأربعة شهداء فإذا لم يأتوا بالشهداء فهم محكومون شرعا بالكذب لأن الدعوى من غير بينة كذب و إفك.

قوله تعالى: «و لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» إفاضة القوم في الحديث خوضهم فيه.

و قوله: «و لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ» إلخ، عطف على قوله: «لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ» إلخ، و فيه كرة ثانية على المؤمنين، و في تقييد الفضل و الرحمة بقوله: «فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ» دلالة على كون العذاب المذكور ذيلا هو عذاب الدنيا و الآخرة.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ٩٢

و المعنى: و لو لا فضل الله عليكم و رحمته في الدنيا و الآخرة لوصل إليكم بسبب ما خضتم فيه من الإفك عذاب عظيم في الدنيا و الآخرة.

قوله تعالى: «إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ» إلخ، الطرف متعلق بقوله: «أَفْضَتُمْ» و تلقي الإنسان القول أخذه القول الذي ألفاه إليه غيره، و تقييد التلقي بالألسنة للدلالة على أنه كان مجرد انتقال القول من لسان إلى لسان من غير تثبت و تدبر فيه.

و على هذا فقوله: «وَ تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ» من قبيل عطف التفسير، و تقييده أيضا بقوله: «بِأَفْوَاهِكُمْ» للإشارة إلى أن القول لم يكن عن تثبت و تبين قلبي و لم يكن له موطن إلا الأفواه لا يتعداها.

و المعنى: أفضتم و خضتم فيه إذ تأخذونه و تنقلونه لسانا عن لسان و تتلفظون بما لا علم لكم به.

و قوله: «وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ» أي تظنون التلقي بألسنتكم و القول بأفواهكم من غير علم سهلا و هو عند الله عظيم لأنه بهتان و افتراء، على أن الأمر مرتبط بالنبي ص و شيوع إفك هذا شأنه بين الناس يفضحه عندهم و يفسد أمر الدعوة الدينية.

قوله تعالى: «وَ لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ» عطف بعد عطف على قوله: «لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ» إلخ، و فيه كرة الثالثة على المؤمنين بالتوبيخ، و قوله: «سُبْحَانَكَ» اعتراض بالتنزيه لله سبحانه و هو من أدب القرآن أن ينزه الله بالتسبيح عند تنزيه كل منزه.

و البهتان الافتراء سمي به لأنه يبهت الإنسان المفتري عليه و كونه بهتانا عظيما لأنه افتراء في عرض و خاصة إذ كان متعلقه بالنبي ص و إنما كان بهتانا لكونه إخبارا من غير علم و دعوى من غير بينة كما تقدم في قوله: «فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ» و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: «يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا» إلى آخر الآيتين موعظة بالنهاي عن العود لمثله، و معنى الآيتين ظاهر.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ٩٣

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يُجِبُونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا» إلى آخر الآية إن كانت الآية نازلة في جملة آيات الإفك و متصلة بما تقدمها و موردها الرمي بالزنا بغير بينة كان مضمونها تهديد الرامين المفيضين في الإفك لكونه فاحشة و إشاعته في المؤمنين حبا منهم لشيوخ الفاحشة.

فالمراد بالفاحشة مطلق الفحشاء كالزنا و القذف و غير ذلك. و حب شيوعها و منها القذف في المؤمنين يستوجب عذابا أليما لحبيه في الدنيا و الآخرة.

و على هذا فلا موجب لحمل العذاب في الدنيا على الحد إذ حب شيوع الفحشاء ليس مما يوجب الحد، نعم لو كان اللام في «الْفَاحِشَةُ» للعهد و المراد بها الفذف و كان حب الشيوع كناية عن قصة الشيوع بالإفاضه و التلقي بالألسن و النقل أمكن حمل العذاب على الحد لكن السياق لا يساعد عليه.

على أن الرمي بمجرد تحققه مرة موجب للحد و لا موجب لتقييده بقصد الشيوع و لا نكتة تستدعي ذلك.

و قوله: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» تأكيد و إعظام لما فيه من سخط الله و غضبه و إن جهله الناس.

قوله تعالى: «وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ» تكرارا للامتنان و معناه ظاهر.

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ» تقدم تفسير الآية في الآية ٢٠٨ من سورة البقرة في الجزء الثاني من الكتاب.

قوله تعالى: «وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَّى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا» إلى آخر الآية. رجوع بعد رجوع إلى الامتنان بالفضل و الرحمة، لا يخلو هذا الاهتمام من تأييد لكون الإفك متعلق بالنبى ص و ليس إلا لكرامته على الله سبحانه.

و قد صرح في هذه المرة الثالثة بجواب لو لا و هو قوله: «مَا زَكَّى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا» و هذا مما يدل عليه العقل فإن مفيض الخير و السعادة هو الله سبحانه، و التعليم القرآني أيضا يعطيه كما قال تعالى: «يَبْدِكَ الْحَيُّرُ»: آل عمران: ٢٦، و قال: «مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ»: النساء: ٧٩.

و قوله: «وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» إضراب عما تقدمه فهو تعالى يزكي من يشاء فالأمر إلى مشيئته، و لا يشاء إلا تزكية من استعد لها و سأله بلسان استعداده

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ٩٤

ذلك، و إليه يشير قوله: «وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» أي سميع لسؤال من سأله التزكية عليم بحال من استعد لها.

قوله تعالى: «وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَ الْمَسَاكِينَ وَ الْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» إلخ، الإيتلاء التقصير و الترك و الحلف، و كل من المعاني الثلاثة لا يخلو من مناسبة، و المعنى لا يقصر أولوا الفضل منكم و السعة يعني الأغنياء في إيتاء أولي القرابة و المساكين و المهاجرين في سبيل الله من مالهم أو لا يترك إيتاءهم أو لا يحلف أن لا يؤتيتهم- و ليغفوا عنهم و ليصفحوا- ثم حرضهم بقوله: «أَلَا لِحُبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

و في الآية- على تقدير نزولها في جملة الآيات و اتصالها بها- دلالة على أن بعض المؤمنين عزم على أن يقطع ما كان يؤتيت به بعض أهل الإفك فنهاه الله عن ذلك و حثه على إدامة الإيتاء كما سيحيى.

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَزُمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» أخذ الصفات الثلاث الإحصان والغفلة والإيمان للدلالة على عظم المعصية فإن كلا من الإحصان بمعنى العفة والغفلة والإيمان سبب تام في كون الرمي ظلما و الرامي ظلما و المرمية مظلومة فإذا اجتمعت كان الظلم أعظم ثم أعظم، و جزاؤه اللعن في الدنيا و الآخرة و العذاب العظيم، و الآية عامة و إن كان سبب نزولها لو نزلت في جملة آيات الإفك خاصا.

قوله تعالى: «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» الظرف متعلق بقوله في الآية السابقة: «وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

و المراد بقوله: «بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» كما يقتضيه إطلاقه مطلق الأعمال السيئة- كما قيل- لا خصوص الرمي بأن تشهد ألسنتهم و أيديهم و أرجلهم على رميهم فالمراد بالشهادة شهادة الأعضاء على السيئات و المعاصي بحسب ما يناسبها فما كان منها من قبيل الأقوال كالقذف و الكذب و الغيبة و نحوها شهدت عليه الألسنة، و ما كان منها من قبيل الأفعال كالسرقة و المشي للنميمة و السعاية و غيرهما شهدت عليه بقية الأعضاء، و إذ كان معظم المعاصي من الأفعال للأيدي و الأرجل اختصنا بالذكر.

و بالحقيقة الشاهد على كل فعل هو العضو الذي صدر منه كما يشير إليه قوله تعالى:

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ٩٥

«شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصَارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»: حم السجدة: ٢٠، و قوله: «إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عِنْدَهُ مُسْمُوعًا»: إسرائ- ٣٦، و قوله: «الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»: يس: ٦٥، و سيأتي الكلام على شهادة الأعضاء يوم القيامة في بحث مستقل في تفسير سورة حم السجدة إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: «يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ» المراد بالدين الجزاء كما في قوله: «مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ»: الحمد: ٤، و توفية الشيء بذله تاما كاملا، و المعنى: يوم القيامة يؤتاهم الله جزاءهم الحق إيتاء تاما كاملا و يعلمون أن الله هو الحق المبين».

هذا بالنظر إلى اتصال الآية بما قبلها و وقوعها في سياق ما تقدمها، و أما بالنظر إلى استقلالها في نفسها فمن الممكن أن يراد بالدين ما يرادف الملة و هو سنة الحياة، و هو معنى عال يرجع إلى ظهور الحقائق يوم القيامة للإنسان، و يكون أكثر مناسبة لقوله:

«وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ».

و الآية من غرر الآيات القرآنية تفسر معنى معرفة الله فإن قوله: «وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ» ينبئ أنه تعالى هو الحق لا سترة عليه بوجه من الوجوه و لا على تقدير من التقادير فهو من أبده البديهيات التي لا يتعلق بها جهل لكن البديهي ربما يغفل عنه فالعلم به تعالى هو ارتفاع الغفلة عنه الذي ربما يعبر عنه بالعلم، و هذا هو الذي يبدو لهم يوم القيامة فيعلمون أن الله هو الحق المبين.

و إلى مثله يشير قوله تعالى: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ»: ق: ٢٢.

قوله تعالى: «الْحَبِيثَاتُ لِلْحَبِيثِينَ وَالْحَبِيثُونَ لِلْحَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ» إلخ ذيل الآية «أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يُقُولُونَ» دليل على أن المراد بالخبثيات و الخبيثين و الطيبات و الطيبين نساء و رجال متلبسون بالخبثاة و الطيب فالآية من تمام آيات الإفك متصلة بها مشاركة لها في سياقها، و هي عامة لا مخصص لها من جهة اللفظ البتة.

فالمراد بالطيب الذي يوجب كونهم مبرئين مما يقولون على ما تدل عليه الآيات

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ٩٦

السابقة هو المعنى الذي يقتضيه تلبسهم بالإيمان و الإحصان فالمؤمنون و المؤمنات مع الإحصان طيبون و طيبات يختص كل من الفريقين بصاحبه، و هم بحكم الإيمان و الإحصان مصونون مبرءون شرعا من الرمي بغير بينة، محكومون من جهة إيمانهم بأن لهم مغفرة كما قال تعالى: «وَأْمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ»: الأحقاف: ٣١ و لهم رزق كريم، و هو الحياة الطيبة في الدنيا و الأجر الحسن في الآخرة كما قال: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»: النحل: ٩٧.

و المراد بالخبث في الخبيثين و الخبيثات و هم غير المؤمنين هو الحال المستقدرة التي يوجبها لهم تلبسهم بالكفر و قد خصت خبيثاتهم بخبيثهم و خبيثوهم بخبيثاتهم بمقتضى الجانسة و المساخنة و ليسوا بمبرئين عن التلبس بالفحشاء- نعم هذا ليس حكما بالتلبس-.

فظهر بما تقدم:

أولا: أن الآية عامة بحسب اللفظ تصف المؤمنين و المؤمنات بالطيب و لا ينافي ذلك اختصاص سبب نزولها و انطباقها عليه.

و ثانيا: أنها تدل على كونهم جميعا محكومين شرعا بالبراءة عما يرمون به ما لم تقم عليه بينة.

و ثالثا: أنهم محكومون بالمغفرة و الرزق الكريم كل ذلك حكم ظاهري لكرامتهم على الله بإيمانهم، و الكفار على خلاف ذلك.

(بحث روائي)

في الدر المنثور، أخرج عبد الرزاق و أحمد و البخاري و عبد بن حميد و مسلم و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و البيهقي في الشعب عن عائشة قالت: كان رسول الله ص إذا أراد أن يخرج إلى سفر- أفرع بين أزواجه- فأيتهان خرج سهمها خرج بها رسول الله ص معه. قالت عائشة: فأفرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمي- فخرجت مع رسول الله ص بعد ما نزل الحجاب- و أنا أحمل في هودجي و أنزل فيه- فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ص من غزوته تلك و قفل.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ٩٧

فدنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل- فقامت حين آذنا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش- فلما قضيت شأنني أقبلت إلى رحلي- فإذا عقد لي من جزع ظفار «١» قد انقطع- فالتمست عقدي و حبسني ابتغاؤه- و أقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فاحتملوا هودجي- فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، و هم يحسبون أنني فيه، و كانت النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلهن اللحم- إنما تأكل المرأة العلقة «٢» من الطعام- فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه- و كنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل فساروا فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش- فجنت منازلهم و ليس بها داع و لا مجيب- فيممت منزلي الذي كنت به- فظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إلي- فبينما أنا جالسة في منزل غلبتني عيني فنمت.

و كان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكري- من وراء الجيش فأدلج «٣» فأصبح عند منزلي- فرأى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني حين رأيته- و كان يراني قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني- فحمرت وجهي بجلبائي- و الله ما كلمني كلمة واحدة و لا سمعت منه كلمة غير استرجاعه- حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش- بعد أن نزلوا موغرين في نحر الظهيرة- فهلك في من هلك.

و كان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي بن سلول- فقدمنا المدينة فاشتكت حين قدمت شهرا- و الناس يفيضون في قول أصحاب الإفك- لا أشعر بشيء من ذلك، و هو يريني في وجعي أنني لا أعرف من رسول الله ص- اللطف الذي كنت أرى منه حين اشتكى- إنما يدخل علي فيسلم ثم يقول: كيف تيكم؟ ثم ينصرف فذاك الذي يريني

(١) ظفار كقطام بلد باليمن قرب صنعاء، و جزع ظفاري منسوب إليها و الجزع الخرز و هو الذي فيه سواد و بياض.

(٢) العلقة من الطعام ما يمسك به الرمق.

(٣) أدلج القوم: ساروا الليل كله أو في آخره.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ٩٨

و لا أشعر بالشر- حتى خرجت بعد ما نقهت و خرجت معي أم مسطح- قبل المناصع «١» و هي متبرزا و كنا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل، و ذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا- و أمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط- فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا.

فانطلقت أنا و أم مسطح- فأقبلت أنا و أم مسطح قبل بيتي- قد أشرعنا «٢» من ثيابنا- فعثرت أم مسطح في مرطها «٣» فقالت: تعس مسطح- فقلت لها: بئس ما قلت أ تسبين رجلا شهد بدرا؟ قالت: أي هنتاه «٤» أ و لم تسمعي ما قال؟ قلت: و ما قال:

فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضا على مرضي.

فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله ص- فسلم ثم قال: كيف تيكم؟

فقلت: أ تأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: و أنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما- قالت: فأذن لي رسول الله ص فجئت لأبوي- فقلت لأمي: يا أمتاه ما يتحدث الناس؟ قالت يا بنية هوني عليك- فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يجبهها- و لها ضرائر إلا أكثرن عليها- فقلت: سبحان الله و لقد تحدث الناس بهذا؟

فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت- لا يرقأ لي دمع و لا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكي.

و دعا رسول الله ص علي بن أبي طالب- و أسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستأمرهما في فراق أهله، فأما أسامة فأشار على رسول الله ص- بالذي يعلم من براءة أهله- و بالذي يعلم لهم في نفسه من الود فقال: يا رسول الله أهلك و لا نعلم إلا خيرا، و أما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك، و النساء سواها كثيرة و إن تسأل الجارية تصدقك، فدعا رسول الله ص بريرة فقال: أي بريرة هل رأيت شيئا يريك؟ قالت بريرة: لا و الذي بعثك بالحق- إن رأيت عليها أمرا أغمضه أكثر من أنها جارية حديثة السن- تنام عن عجين أهلها فيأتي الداجن فيأكله.

(١) المناصع: المواضع يتخلى فيها لبول أو حاجة.

(٢) أي رفعنا ثيابنا.

(٣) المرط- بالكسر- كساء واسع يؤتزر به و ربما تلقيه المرأة على رأسها و تتلفع به.

(٤) خطاب للمرأة يقال للرجل يا هناه.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ٩٩

فقام رسول الله ص فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبي - فقال و هو على المنبر:

يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل - بلغني أذاه في أهل بيتي - فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا، و لقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا- و ما كان يدخل على أهلي إلا معي.

فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله أنا أعذرك منه- إن كان من الأوس ضربت عنقه- و إن كان من إخواننا من بني الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، فقام سعد بن عبادة و هو سيد الخزرج- و كان قبل ذلك رجلا صالحا و لكن احتملته الحمية فقال لسعد: كذبت لعمر الله ما تقتله و لا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير- و هو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة: كذبت لنقتله فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فتناور الحيان: الأوس و الخزرج- حتى هموا أن يقتتلوا و رسول الله ص قائم على المنبر- فلم يزل رسول ص يخفضهم حتى سكتوا و سكت.

فبكيت يومي ذلك فلا يرقأ لي دمع و لا أكتحل بنوم- فأصبح أبوي عندي و قد بكيت ليلتين و يوما- لا أكتحل بنوم و لا يرقأ لي دمع- و أبوي يظنان أن البكاء فالق كبدي.

فبينما هما جالسان عندي و أنا أبكي- فاستأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي- فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ص ثم جلس- و لم يجلس عندي منذ قيل في ما قيل قبلها- و قد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأني بشيء، فتشهد حين جلس ثم قال: أما بعد يا عائشة إنه بلغني عنك كذا و كذا- فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، و إن كنت أملت بذنب فاستغفري الله و توبي إليه- فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه.

فلما قضى رسول الله ص مقالته قلص «١» دمعي- حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ص. قال: و الله ما أدري ما أقول لرسول الله ص، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ص، قالت: و الله ما أدري ما أقول لرسول الله ص.

(١) قلص: اجتمع و انقبض.

فقلت و أنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن: إني و الله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث- حتى استقر في أنفسكم و صدقتم به- فلئن قلت لكم: إني بريئة و الله يعلم أني بريئة- لا تصدقوني، و لئن اعترفت لكم بأمر- و الله يعلم أني منه بريئة لتصدقني، و الله لا أجد لي و لكم مثلا إلا قول أبي يوسف: فصبر جميل و الله المستعان على ما تصفون.

ثم تحولت فاضطجعت على فراشي- و أنا حينئذ أعلم أني بريئة و أن الله مبرئي ببراءتي- و لكن و الله ما كنت أظن- أن الله منزل في شأنني و حيا يتلى، و لشأني في نفسي كان أحقر- من أن يتكلم الله في بأمر يتلى، و لكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ص رؤيا- يبرئني الله بها.

قالت: فوالله ما رام رسول الله ص مجلسه- و لا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه- فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي- حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق- و هو في يوم شات من ثقل القول الذي أنزل عليه- فلما سرى عن رسول الله ص سرى عنه و هو يضحك- فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: أبشري يا عائشة أما الله فقد برأك، فقالت أُمي: قومي إليه، فقلت: و الله لا أقوم إليه و لا أحمد- إلا الله الذي أنزل براءتي، و أنزل الله: «إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ» العشر الآيات كلها.

فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر، و كان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه و فقره: و الله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا- بعد الذي قال لعائشة ما قال فأنزل الله: «وَ لَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَةِ- أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَ الْمَسَاكِينَ- إِلَى قَوْلِهِ- رَحِيمٌ» قال أبو بكر: و الله إني أحب أن يغفر الله لي فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، و قال: و الله لا أنزعها منه أبدا.

قالت عائشة: فكان رسول الله ص يسأل- زينب ابنة جحش عن أمري فقال:

يا زينب ما ذا علمت أو رأيت؟ فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي و بصري ما علمت إلا خيرا، قالت: و هي التي كانت تساميني من أزواج النبي ص- فعصمها الله بالورع، و طفقت أختها حمنة تحارب لها- فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك:

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٠١

أقول: و الرواية مروية بطرق أخرى عن عائشة أيضا و عن عمر و ابن عباس و أبي هريرة و أبي اليسر الأنصاري و أم رومان أم عائشة و غيرهم و فيها بعض الاختلاف:

و فيها إن الذين جاءوا بالإفك- عبد الله بن أبي بن سلول و مسطح بن أثاثة- و كان بدريا من السابقين الأولين من المهاجرين، و حسان بن ثابت، و حمنة أخت زينب زوج النبي ص.

و فيها أن النبي ص دعاهم بعد ما نزلت آيات الإفك - فحدهم جميعا غير أنه حد عبد الله بن أبي حدين - و إنما حده حدين - لأنه من قذف زوج النبي ص كان عليه حدان.

و في الروايات على تقاربها في سرد القصة إشكال من وجوه:

أحدها: أن المسلم من سياقها أن النبي ص كان في ريب من أمر عائشة بعد تحقق الإفك كما يدل عليه تغير حاله بالنسبة إليها في المعاملة باللطف أيام اشتكائها و بعدها حتى نزلت الآيات، و يدل عليه قولها له حين نزلت الآيات و بشرها به: بحمد الله لا بحمدك، و في بعض الروايات أنها قالت لأبيها و قد أرسله النبي ص ليبشرها بنزول العذر: بحمد الله لا بحمد صاحبك الذي أرسلك، تريد به النبي ص، و في الرواية الأخرى عنها: أن النبي ص لما وعظها أن تتوب إلى الله إن كان منها شيء و في الباب امرأة جالسة قالت له عائشة: أما تستحي من هذه المرأة أن تذكر شيئا، و من المعلوم أن هذا النوع من الخطاب المبني على الإهانة و الإزرء ما كان يصدر عنها لو لا أنها وجدت النبي في ريب من أمرها. كل ذلك مضافا إلى التصريح به في رواية عمر ففيها: «فكان في قلب النبي ص مما قالوا».

و بالجملة دلالة عامة الروايات على كون النبي ص في ريب من أمرها إلى نزول العذر مما لا ريب فيه، و هذا مما يجلب عنه مقامه (ص) كيف؟ و هو سبحانه يقول:

«لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ» فيويخ المؤمنين و المؤمنات على إساءتهم الظن و عدم ردهم ما سمعوه من الإفك فمن لوازم الإيمان حسن الظن بالمؤمنين، و النبي ص أحق من يتصف بذلك و يتحرز من سوء الظن الذي من الإثم و له مقام النبوة و العصمة الإلهية.

على أنه تعالى ينص في كلامه على اتصافه (ص) بذلك إذ يقول: «و مِنْهُمْ الَّذِينَ

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٠٢

يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»: التوبة: ٦١.

على أنا نقول: إن تسرب الفحشاء إلى أهل النبي ينفر القلوب عنه فمن الواجب أن يطهر الله سبحانه ساحة أزواج الأنبياء عن لوث الزنا و الفحشاء و إلا لغت الدعوة و تثبت بهذه الحجة العقلية عفتهم واقعا لا ظاهرا فحسب، و النبي ص أعرف بهذه الحجة منا فكيف جاز له أن يرتاب في أمر أهله برمي من رام أو شيوع من إفك.

و ثانيها: أن الذي تدل عليه الروايات أن حديث الإفك كان جاريا بين الناس منذ بدأ به أصحاب الإفك إلى أن ختم بحدهم أكثر من شهر و قد كان حكم القذف مع عدم قيام الشهادة معلوما و هو جلد القاذف و تبرئة المقذوف شرعا فما

معنى توقف النبي ص عن حد أصحاب الإفك هذه المدة الطويلة و انتظاره الوحي في أمرها حتى يشيع بين الناس و تتلقاه الألسن و تسير به الركبان و يتسع الخرق على الراقق؟

و ما أتى به الوحي من العذر لا يزيد على ما تعينه آية القذف من براءة المقذوف حكما شرعيا ظاهريا.

فإن قيل: الذي نزل من العذر براءتها واقعا و طهارة ذيلها في نفس الأمر و هذا أمر لا تكفي له آية حد القاذف، و لعل صبره (ص) هذه المدة الطويلة إنما كان لأجله.

قلت: لا دلالة في شيء من هذه الآيات الست عشرة على ذلك، و إنما تثبت بالحجة العقلية السابقة الدالة على طهارة بيوت الأنبياء من لوثة الفحشاء.

أما الآيات العشر الأولى التي فيها شائبة الاختصاص فأظهرها في الدلالة على براءتها قوله تعالى: «لَوْ لَا جَاءُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ فِإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ» و قد استدلت فيها على كذبهم بعدم إتيانهم بالشهداء، و من الواضح أن عدم إقامة الشهادة إنما هو دليل البراءة الظاهرية أعني الحكم الشرعي بالبراءة دون البراءة الواقعية لوضوح عدم الملازمة.

و أما الآيات الست الأخيرة فقوله: «الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَ الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ إِنْ عَمَّ مِنْ غَيْرِ مَخْصَصٌ مِنْ جِهَةِ اللَّفْظِ فَالَّذِي تَنَبَّهَتْ مِنْ الْبِرَاءَةِ مَشْتَرِكٌ فِيهِ بَيْنَ جَمِيعِ الْمَقْذُوفِينَ

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٠٣

من غير قيام بينة من المؤمنين و المؤمنات، و من الواضح أن البراءة المناسبة لهذا المعنى هي البراءة الشرعية.

و الحق أن لا مناص عن هذا الإشكال إلا بالقول بأن آية القذف لم تكن نازلة قبل حديث الإفك و إنما نزلت بعده، و إنما كان سبب توقفه (ص) خلو الواقعة عن حكم الله بعد فكان ينتظر في أمر الإفك الحكم السماوي.

و من أوضح الدليل عليه ما في الرواية من استعذار النبي ص من القاذف في المسجد و قول سعد بن معاذ ما قال و مجادلة سعد بن عبادة إياه و اختلاف الأوس و الخزرج بمحضر من النبي ص و في رواية عمر بعد ما ذكر اختلاف ابن معاذ و ابن عبادة: فقال هذا: يا للأوس و قال هذا: يا للخزرج فاضطربوا بالنعال و الحجارة فتلاطموا، الحديث فلو كانت آية القذف نازلة قبل ذلك و حكم الحد معلوما لم يجب سعد بن معاذ النبي ص بأنه يعذره منه بالقتل و لقال هو و سائر الناس: يا رسول الله حكم القذف معلوم و يدك مبسوطة.

و ثالثها: أهما تصرح بكون أصحاب الإفك هم عبد الله بن أبي و مسطحا و حسانا و حمنة ثم تذكر أنه (ص) حد عبد الله بن أبي حدين و كلا من مسطح و حسان و حمنة حدا واحدا، ثم تعلق حدي عبد الله بن أبي بأن من قذف أزواج النبي ص فعليه حدان، و هذا تناقض صريح فإنهم جميعا كانوا قاذفين بلا فرق بينهم.

نعم تذكر الروايات أن عبد الله بن أبي كان هو الذي تولى كبره منهم لكن لم يقل أحد من الأمة إن هذا الوصف يوجب حدين. و لا أن المراد بالعذاب العظيم في قوله: «الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ» هو ثبوت حدين.

و في تفسير القمي،": في قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ» الآية فإن العامة روت أنها نزلت في عائشة- و ما رميت به في غزوة بني المصطلق من خزاعة و أما الخاصة فإنهم رووا- أنها نزلت في مارية القبطية و ما رمتها به عائشة.

حدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا محمد بن عيسى عن الحسن بن علي بن فضال قال: حدثني عبد الله بن بكير عن زرارة قال: سمعت أبا جعفر (ع) يقول: لما هلك إبراهيم بن رسول الله ص حزن عليه حزنا شديدا- فقالت عائشة: ما الذي

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٠٤

يجزئك عليه؟ ما هو إلا ابن جريح، فبعث رسول الله ص عليا (ع) و أمره بقتله.

فذهب علي (ع) و معه السيف- و كان جريح القبطي في حائط- فضرب علي (ع) باب البستان- فأقبل جريح له ليفتح الباب- فلما رأى عليا (ع) عرف في وجهه الغضب فأدبر راجعا و لم يفتح باب البستان- فوثب علي (ع) على الحائط و نزل إلى البستان و اتبعه- و ولى جريح مدبرا- فلما خشي أن يرهقه «١» سعد في نخلة- و سعد علي (ع) في أثره فلما دنا منه- رمى بنفسه من فوق النخلة فبدت عورته- فإذا ليس له ما للرجال و لا له ما للنساء.

فانصرف علي (ع) إلى النبي ص فقال له: يا رسول الله إذا بعثتني في الأمر أكون كالمسمار المحمي في الوبر أم أثبت؟ قال: لا بل تثبت. قال: و الذي بعثك بالحق- ما له ما للرجال و ما له ما للنساء، فقال: الحمد لله الذي صرف عنا سوء أهل البيت.

و فيه، في رواية عبيد الله بن موسى عن أحمد بن راشد عن مروان بن مسلم عن عبد الله بن بكير قال: قلت لأبي عبد الله (ع): جعلت فداك كان رسول الله ص أمر بقتل القبطي- و قد علم أنها كذبت عليه أو لم يعلم؟ و قد دفع الله عن القبطي القتل بتثبيت علي (ع)- فقال: بل كان و الله علم، و لو كان عزيمة من رسول الله ص- ما انصرف علي (ع) حتى يقتله، و لكن إنما فعل رسول الله ص لترجع عن ذنبها- فما رجعت و لا اشتد عليها قتل رجل مسلم.

أقول: و هناك روايات أخر تدل على مشاركة غيرها معها في هذا الرمي، و جريح هذا كان خادما خصيا لمارية أهدها معها مقوقس عظيم مصر لرسول (ص) و أرسله معها ليخدمها.

و هذه الروايات لا تخلو من نظر:

أما أولا: فلأن ما فيها من القصة لا يقبل الانطباق على الآيات و لا سيما قوله:

(١) أرهقه: أدركه.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٠٥

«إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ» الآية و قوله: «لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا» الآية، و قوله: «تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تُقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ» الآية، فمحصل الآيات أنه كان هناك جماعة مرتبط بعضهم ببعض يذيعون الحديث ليفضحوا النبي ص، و كان الناس يتداولونه لسانا عن لسان حتى شاع بينهم و مكثوا على ذلك زمانا و هم لا يراعون حرمة النبي ص و كرامته من الله، و أين مضمون هذه الروايات من ذلك.

اللهم إلا أن تكون الروايات قاصرة في شرحها للقصة.

و أما ثانيا: فقد كان مقتضى القصة و ظهور براءتها إجراء الحد و لم يجر، و لا مناص عن هذا الإشكال إلا بالقول بنزول آية القذف بعد قصة الإفك بزمان.

و الذي ينبغي أن يقال بالنظر إلى إشكال الحد الوارد على الصنفين من الروايات جميعا- كما عرفت- أن آيات الإفك نزلت قبل آية حد القذف، و لم يشرع بنزول آيات الإفك إلا براءة المقذوف مع عدم قيام الشهادة و تحريم القذف.

و لو كان حد القاذف مشروعا قبل حديث الإفك لم يكن هناك مجوز لتأخيره مدة معتدا بها و انتظار الوحي و لا نجا منه قاذف منهم، و لو كان مشروعا مع نزول آيات الإفك لأشير فيها إليه، و لا أقل باتصال الآيات بآية القذف، و العارف بأساليب الكلام لا يرتاب في أن قوله: «إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ» الآيات منقطعة عما قبلها.

و لو كان على من قذف أزواج النبي ص حدان لأشير إلى ذلك في خلال آيات الإفك بما فيها من التشديد و اللعن و التهديد بالعذاب على القاذفين.

و يتأكد الإشكال على تقدير نزول آية القذف مع نزول آيات الإفك فإن لازمه أن يقع الابتلاء بحكم الحدين فينزل حكم الحد الواحد.

و في الكافي، عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله (ع) قال: من قال في مؤمن ما رأته عيناه و سمعته أذناه- فهو من الذين قال الله عز و جل: «إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ- إِلَى قَوْلِهِ- وَ الْآخِرَةَ».

أقول: و رواه القمي في تفسيره، عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام عنه (ع)

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٠٦

و الصدوق في الأمالي، بإسناده عن ابن أبي عمير عن محمد بن حمران عنه (ع)، و المفيد في الاختصاص، عنه (ع) مرسلا.

و فيه، بإسناده عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله (ع) قال: قال رسول الله ص: من أذاع فاحشة كان كميثدئها.

و في الجمع،": قيل: إن قوله: «وَ لَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَةِ» الآية، نزلت في أبي بكر و مسطح بن أثاثة- و كان ابن خالة أبي بكر، و كان من المهاجرين و من جملة البديين و كان فقيرا، و كان أبو بكر يجري عليه و يقوم بنفقته- فلما خاض في الإفك قطعها و حلف أن لا ينفعه بنفع أبدا- فلما نزلت الآية عاد أبو بكر إلى ما كان، و قال: و الله إني لأحب أن يغفر الله لي، و الله لا أنزعها عنه أبدا": عن ابن عباس و عائشة و ابن زيد.

و فيه،": و قيل: نزلت في جماعة من الصحابة- أقسموا على أن لا يتصدقوا على رجل تكلم بشيء من الإفك و لا يواسوهم": عن ابن عباس و غيره.

أقول: و رواه في الدر المنثور، عن ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس.

و في تفسير القمي، و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (ع): في قوله تعالى:

«وَ لَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَةِ- أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى» و هم قرابة رسول الله ص «وَ الْمَسَاكِينِ وَ الْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ- وَ لِيَعْفُوا وَ لِيَصْفَحُوا» يقول- يعفو بعضكم عن بعض، و يصفح بعضكم بعضا- فإذا فعلتم كانت رحمة الله لكم، يقول الله عز و جل: «أَ لَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَ اللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ».

و في الكافي، بإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر (ع) في حديث قال: و نزل بالمدينة «وَ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ- فَاجْلِدُوهُنَّ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَ لَا تَقْبَلُوا لَهُنَّ شَهَادَةً أَبَدًا- وَ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ- إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ أَصْلَحُوا- فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ».

فبرأه الله ما كان مقيماً على الفرية- من أن يسمى بالإيمان، قال الله عز و جل:

«أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ» و جعله من أولياء إبليس قال: «إِلَّا

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٠٧

إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنَّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» و جعله ملعونا فقال: «إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ- لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ، يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ- بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

و ليست تشهد الجوارح على مؤمن- إنما تشهد على من حقت عليه كلمة العذاب فأما المؤمن فيعطى كتابه بيمينه، قال الله عز و جل: «فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَ لَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا»

و في الجمع،: في قوله تعالى: «الْحَيِّثَاتُ لِلْحَيِّثِينَ وَ الْحَيِّثُونَ لِلْحَيِّثَاتِ- وَ الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَ الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ» الآية، قيل في معناه أقوال- إلى أن قال- الثالث

الحيثات من النساء للحيثين من الرجال- و الحيثون من الرجال للحيثات من النساء عن أبي مسلم و الجبائي- و هو المروي عن أبي جعفر و أبي عبد الله (ع). قالوا: هي مثل قوله: «الرَّائِي لَا يَنْكُحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً» إلا أن أناسا هموا أن يتزوجوا منهن- فنهاهم الله عن ذلك و كره ذلك لهم.

و في الخصال، عن عبد الله بن عمر و أبي هريرة قالوا: قال رسول الله ص: إذا طاب قلب المرء طاب جسده، و إذا خبث القلب خبث الجسد.

و في الإحتجاج، عن الحسن بن علي (ع): في حديث له مع معاوية و أصحابه- و قد نالوا من علي (ع): «الْحَيِّثَاتُ لِلْحَيِّثِينَ وَ الْحَيِّثُونَ لِلْحَيِّثَاتِ» هم و الله يا معاوية أنت و أصحابك هؤلاء و شيعتك «وَ الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَ الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ» إلى آخر الآية، هم علي بن أبي طالب و أصحابه و شيعته.

[سورة النور (٢٤): الآيات ٢٧ الى ٣٤]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَ تَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧)
فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَ إِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكى لَكُمْ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨)
لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا تَكْتُمُونَ (٢٩) قُلْ
لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَ قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُضْنَ مِنْ
أَبْصَارِهِنَّ وَ يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَ لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ لِيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَ لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا

لِيُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضُرُّنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ
لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)

وَ أَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَ إِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَ
لِيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ
فِيهِمْ خَيْراً وَ آتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَ لَا تُكْرِهُوا فَتِياتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ حَخْصُنَا لِيَتَّبِعُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَنْ
يُكْرِهُهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٣) وَ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَ مَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَ
مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤)

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٠٩

(بيان)

أحكام و شرائع متناسبة و مناسبة لما تقدم.

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَ تَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا» إلخ، الأئس بالشيء و إليه
الألفة و سكون القلب إليه، و الاستيناس طلب ذلك بفعل يؤدي إليه كالاستيناس لدخول بيت بذكر الله و التتضح و نحو ذلك ليتنبه
صاحب البيت أن هناك من يريد الدخول عليه فيستعد لذلك فرما كان في حال لا يحب أن يراه عليها أحد أو يطلع عليها مطلع.

و منه يظهر أن مصلحة هذا الحكم هو الستر على عورات الناس و التحفظ على كرامة الإيمان فإذا استأنس الداخل عند
إرادة الدخول على بيت غير بيته فأخبر باستيناسه صاحب البيت بدخوله ثم دخل فسلم عليه فقد أعانه على ستر عورته، و
أعطاه الأمن من نفسه.

و يؤدي الاستمرار على هذه السيرة الجميلة إلى استحكام الأخوة و الألفة و التعاون العام على إظهار الجميل و الستر على
القبیح و إليه الإشارة بقوله: «ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» أي لعلكم بالاستمرار على هذه السيرة تتذكرون ما يجب عليكم
رعايته و إحياءه من سنة الأخوة و تألف القلوب التي تحتها كل سعادة اجتماعية.

و قيل: إن قوله: «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» تعليل لمحذوف و التقدير قيل لكم كذا لعلكم تتذكرون مواظبوا الله فتعملوا بموجبها، و لا بأس
به.

و قيل: إن في قوله: «حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَ تَسَلِّمُوا» تقديمًا و تأخيرًا و الأصل حتى تسلموا و تستأذِنوا. و هو كما ترى.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١١٠

قوله تعالى: «فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ» ... إلخ، أي إن علمتم بعدم وجود أحد فيها- و هو الذي يملك الإذن- فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم من قبل من يملك الإذن، و ليس المراد به أن يتطلع على البيت و ينظر فيه فإن لم ير فيه أحدا كف عن الدخول فإن السياق يشهد على أن المنع في الحقيقة عن النظر و الاطلاع على عورات الناس.

و هذه الآية تبين حكم دخول بيت الغير و ليس فيه من يملك الإذن، و الآية السابقة تبين حكم الدخول و فيه من يملك الإذن و لا يمنع، و أما دخوله و فيه من يملك الإذن و يمنع و لا يأذن فيه فيبين حكمه قوله تعالى: «وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَأَرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ».

قوله تعالى: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ» إلخ، ظاهر السياق كون قوله: «فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ» صفة بعد صفة لقوله: «بُيُوتًا» لا جملة مستأنفة معللة لقوله: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ»، و الظاهر أن المتاع بمعنى الاستمتاع.

ففيه تجويز الدخول في بيوت معدة لأنواع الاستمتاع و هي غير مسكونة بالطبع كالحانات و الحمامات و الأرحية و نحوها فإن كونها موضوعة للاستمتاع إذن عام في دخولها.

و ربما قيل: إن المراد بالمتاع المعنى الاسمي و هو الأثاث و الأشياء الموضوعة للبيع و الشري كما في بيوت التجارة و الحوانيت فإنها مأذونة في دخولها إذنا عاما و لا يخلو من بعد لقصور اللفظ.

قوله تعالى: «قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ» الغض إطباق الجفن، على الجفن و الأبصار جمع بصر و هو العضو الناظر، و من هنا يظهر أن «مِنْ» في «مِنْ أَبْصَارِهِمْ» لا ابتداء الغاية لا مزيدة و لا للجنس و لا للتبويض كما قال بكل قائل، و المعنى يأتوا بالغض آخذاً من أبصارهم.

فقوله: «قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ» لما كان «يَعْضُوا» مترتبا على

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١١١

قوله: «قُلْ» ترتب جواب الشرط عليه دل ذلك على كون القول بمعنى الأمر و المعنى مرهم يعضوا من أبصارهم و التقدير مرهم بالغض إنك إن تأمرهم به يعضوا، و الآية أمر بغض الأبصار و إن شئت فقل: نهى عن النظر إلى ما لا يحل النظر إليه من الأجنبي و الأجنبية لمكان الإطلاق.

و قوله: «وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ» أي و مرهم يحفظوا فروجهم، و الفرجة و الفرج الشق بين الشينين، و كنى به عن السوأة، و على ذلك جرى استعمال القرآن المليء أدبا و خلقا ثم كثر استعماله فيها حتى صار كالنص كما ذكره الراغب.

و المقابلة بين قوله: «يَعُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ» و «يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ» يعطي أن المراد بحفظ الفروج سترها عن النظر لا حفظها عن الزنا و اللواط كما قيل،

و قد ورد في الرواية عن الصادق (ع): أن كل آية في القرآن في حفظ الفروج فهي من الزنا- إلا هذه الآية فهي من النظر.

و على هذا يمكن أن تنقيد أولى الجملتين بثانيتها و يكون مدلول الآية هو النهي عن النظر إلى الفروج و الأمر بسترها.

ثم أشار إلى وجه المصلحة في الحكم و حثهم على المراقبة في جنبه بقوله: «ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ».

قوله تعالى: «وَ قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُضْنَ» إلخ، الكلام في قوله: «وَ قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَ يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ» نظير ما مر في قوله: «قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ» فلا يجوز لهن النظر إلى ما لا يجوز النظر إليه و يجب عليهن ستر العورة عن الأجنبي و الأجنبية.

و أما قوله: «وَ لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا» فالإبداء الإظهار، و المراد بزینتهن مواضع الزينة لأن نفس ما يتزين به كالقرط و السوار لا يحرم إبدائها فالمراد بإبداء الزينة إبداء مواضعها من البدن.

و قد استثنى الله سبحانه منها ما ظهر، و قد وردت الرواية أن المراد بما ظهر منها الوجه و الكفان و القدمان كما سيحيء إن شاء الله.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١١٢

و قوله: «وَ لِيَضْرِبْنَ جُمَّرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ» الخمر بضمين جمع خمار و هو ما تغطي به المرأة رأسها و ينسدل على صدرها، و الجيوب جمع جيب بالفتح فالسكون و هو معروف و المراد بالجيوب الصدور، و المعنى و ليلقين بأطراف مقانعهن على صدورهن ليسترنها بها.

و قوله: «وَ لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ»- إلى قوله- «أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ» البعولة هم أزواجهن، و الطوائف السبع الأخر محارمهن من جهة النسب و السبب، و أجداد البعولة حكمهم حكم آبائهم و أبناء البعولة حكمهم حكم الأبناء.

و قوله: «أَوْ نِسَائِهِنَّ» في الإضافة إشارة إلى أن المراد بهن المؤمنات من النساء فلا يجوز لهن التجرد لغيرهن من النساء و قد وردت به الروايات عن أئمة أهل البيت (ع).

و قوله: «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ» إطلاقه يشمل العبيد و الإماء، و قد وردت به الرواية كما سيأتي إن شاء الله، و هذا من موارد استعمال «ما» في أولي العقل.

و قوله: «أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِزْتِمَةِ مِنَ الرَّجَالِ» الإِزْتِمَةُ هي الحاجة، و المراد به الشهوة التي تحوج إلى الازدواج، و «مِنَ الرَّجَالِ» بيان للتابعين، و المراد بهم كما تفسره الروايات البله المولى عليهم من الرجال و لا شهوة لهم.

و قوله: «أَوِ الطِّفْلِ الَّذِي لَمْ يَطْهُرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ» أي جماعة الأطفال- و اللام للاستغراق- الذين لم يقووا و لم يظهروا- من الظهور بمعنى الغلبة- على أمور يسوء التصريح بها من النساء، و هو- كما قيل- كناية عن البلوغ.

و قوله: «وَ لَا يَضْرِبَنَّ بَأْرِحْلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ» ذلك بتصوت أسباب الزينة كالخلخال و العقد و القرط و السوار.

و قوله: «وَ تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» المراد بالتوبة- على ما يعطيه السياق- الرجوع إليه تعالى بامتنال أو امره و الانتهاء عن نواهيه و بالجمله اتباع سبيله.

قوله تعالى: «وَ أَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَ إِمَائِكُمْ» الإنكاح

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١١٣

التزويج، و الأيامي جمع أم بفتح الهمزة و كسر الياء المشددة و هو الذكر الذي لا أنثى معه و الأنثى التي لا ذكر معها و قد يقال في المرأة أئمة، و المراد بالصالحين الصالحون للتزويج لا الصالحون في الأعمال.

و قوله: «إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْجِبُهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ عَدَّ جَمِيلٌ بِالْغِنَى وَ سَعَةِ الرِّزْقِ وَ قَدْ أَكَدَهُ بِقَوْلِهِ: «وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» وَ الرِّزْقُ يَتَّبِعُ صِلَاحِيَةَ الْمَرْزُوقِ بِمَشِيَةِ مَنْ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ، وَ سِيَوَافِكُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «فَوَرَّبُّ السَّمَاءِ وَ الأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطُقُونَ»: الذاريات: ٢٣ كلام في معنى سعة الرزق.

قوله تعالى: «وَ لَيْسْتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُعْجِبَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ» الاستعفاف و التعفف قريبا المعنى، و المراد بعدم وجدان النكاح عدم القدرة على المهر و النفقة، و معنى الآية الأمر بالتعفف لمن لا يقدر على النكاح و التحرز عن الوقوع في الزنا حتى يغنيه الله من فضله.

قوله تعالى: «وَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً» إلخ المراد بالكتاب المكاتبه، و ابتغاء المكاتبه أن يسأل العبد مولاه أن يكتبه على إبتائه المولى مالا على أن يعتقه، و في الآية أمر للموالي بإجابتهم إن علموا فيهم خيرا و هو كناية عن إحراز صلاحيتهم لذلك.

و قوله: «وَ أَنْتَهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ» إشارة إلى إبتائهم مال المكاتبه من الزكاة المفروضة فسهم من سهام الزكاة لهم، كما قال تعالى: «وَ فِي الرِّقَابِ»: التوبة: ٦٠ أو إسقاط شيء من مال المكاتبه.

و في هذه الآية و الآيات السابقة مباحث فقهية جمة ينبغي أن يراجع فيها كتب الفقه.

قوله تعالى: «وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا الْفَتِيَاتِ الْإِمَاءِ وَالْوَالِدَاتِ، وَالْبِغَاءُ الزَّانَا وَهُوَ مَفَاعَلَةٌ مِنَ الْبِغْيِ، وَالتَّحَصُّنُ التَّعْفُفُ وَالْإِزْدَوَاجُ وَابْتِغَاءُ عَرْضِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا طَلَبُ الْمَالِ، وَالْمَعْنَى ظَاهِرٌ.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١١٤

و إنما اشترط النهي عن الإكراه بإرادة التحصن لأن الإكراه لا يتحقق في من لا يريد التحصن، ثم وعدهن المغفرة على تقدير الإكراه بقوله: «وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ عَفُورٌ رَحِيمٌ» ومعناه ظاهر.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَ مَثَلًا مِمَّنْ الدِّينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ» المثل الصفة و من الممكن أن يكون قوله: «وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا» إلخ، حالاً من فاعل قوله: «تُوبُوا» في الآية السابقة أو استئنافاً و المعنى و أقسم لقد أنزلنا إليكم آيات تبيين لكم من معارف الدين ما تفلحون به، و صفة من السابقين أختيارهم و أشرارهم يتميز بها لكم ما ينبغي أن تأخذوا به مما ينبغي لكم أن تجتنبوا، و موعظة للمتقين منكم.

(بحث روائي)

في تفسير القمي، بإسناده عن عبد الرحمن بن أبي عبد الله عن أبي عبد الله (ع): في قول الله عز و جل: «لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ - حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَ تُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا» قال: الاستيناس وقع النعل و التسليم.

أقول: و رواه الصدوق في معاني الأخبار، عن محمد بن الحسن مرفوعاً عن عبد الرحمن عنه (ع).

و في الجمع، عن أبي أيوب الأنصاري قال: قلنا: يا رسول الله ما الاستيناس؟

قال يتكلم الرجل بالتسبيحة و التحميدة و التكبيرة- و يتنحى على أهل البيت.

و عن سهل بن سعد قال: اطلع رجل في حجرة من حجر رسول الله ص فقال رسول الله ص و معه مدرى «١» يحك رأسه: لو أعلم أنك تنظر لطعنت به في عينيك- إنما الاستيناس من النظر.

و روي: أن رجلاً قال للنبي ص: أستأذن على أمي؟ فقال: نعم. قال

(١) المشط.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١١٥

إنما ليس لها خادم غيري- أ فاستأذن عليها كلما دخلت؟ قال: أ تحب أن تراها عريانة؟

قال الرجل: لا، قال: فاستأذن عليها.

و روي: أن رجلا استأذن على رسول الله ص فتنحج- فقال (ص) لامرأة يقال لها: روضة: قومي إلى هذا فعلميه و قولي له: قل السلام عليكم أ أدخل؟ فسمعها الرجل فقالها فقال: ادخل.

أقول: و روي في الدر المنثور، عن جمع من أصحاب الجوامع الرواية الأولى عن أبي أيوب، و الثانية عن سهل بن سعد و الرابعة عن عمرو بن سعد الثقفي.

و في الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن عبادة بن الصامت: أن رسول الله ص سئل عن الاستيذان في البيوت فقال: من دخلت عينه قبل أن يستأذن و يسلم- فقد عصى الله و لا إذن له.

و في تفسير القمي،": في قوله تعالى: «فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا- فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ» قال: معناه و إن لم تجدوا فيها أحدا يأذن لكم- فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم.

و فيه،: في قوله تعالى: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا- بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ» قال الصادق (ع): هي الحمامات و الخانات و الأرحية تدخلها بغير إذن.

و في الكافي، بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله (ع): في حديث يذكر فيه ما فرض الله على الجوارح. قال: و فرض على البصر أن لا ينظر إلى ما حرم الله عليه، و أن يعرض عما نهى الله عنه مما لا يحل له- و هو عمله و هو من الإيمان.

فقال تبارك و تعالى: «قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ» فنهاهم أن ينظروا إلى عوراتهم- و أن ينظر المرء إلى فرج أخيه- و يحفظ فرجه أن ينظر إليه، و قال: «وَ قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَ يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ» من أن تنتظر إحداهن إلى فرج أختها- و تحفظ فرجها من أن ينظر إليه.

و قال: كل شيء في القرآن من حفظ الفرغ فهو من الزنا- إلا هذه الآية فهو من النظر.:

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١١٦

أقول: و روى القمي في تفسيره، ذيل الحديث عن أبيه عن ابن أبي عمير عن أبي بصير عنه (ع)، و روي مثله عن أبي العالية و ابن زيد.

و في الكافي، بإسناده عن سعد الإسكاف عن أبي جعفر (ع) قال: استقبل شاب من الأنصار امرأة بالمدينة- و كان النساء يتقنعن خلف آذانهن- فنظر إليها و هي مقبلة- فلما جازت نظر إليها و دخل في زقاق قد سماه بني فلان، و جعل ينظر خلفها، و اعترض وجهه عظم في الحائط أو زجاجة فشق وجهه- فلما مضت المرأة نظر فإذا الدماء تسيل على ثوبه و صدره- فقال: و الله لآتين رسول الله ص و لأخبرنه.

قال: فأتاه فلما رآه رسول الله ص قال له: ما هذا؟ فأخبره فهبط جبرئيل بهذه الآية «قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أُنْبُسِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ- ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ».

أقول: و رواه في الدر المنثور، عن ابن مردويه عن علي بن أبي طالب مثله

، و ظاهر الحديث أن المراد بالأمر بالغض في الآية النهي عن مطلق النظر إلى الأجنبية، كما أن ظاهر بعض الروايات السابقة أنه نهي عن النظر إلى فرج الغير خاصة.

و فيه، بإسناده عن مروك بن عبيد عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله (ع) قال: قلت له: ما يحل أن يرى من المرأة إذا لم يكن محرماً؟ قال: الوجه و الكفان و القدمان.

أقول:

و رواه في الخصال، عن بعض أصحابنا عنه (ع) و لفظه: الوجه و الكفين و القدمين.

و في قرب الإسناد، للحميري عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر (ع) قال: سألته عن الرجل ما يصلح له أن ينظر إليه- من المرأة التي لا تحل له؟ قال: الوجه و الكف و موضع السوار.

و في الكافي، بإسناده عن عباد بن صهيب قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: لا بأس بالنظر إلى رعوس أهل تمامة و الأعراب- و أهل السواد و العلوج- لأنهم إذا نحووا لا ينتهون «١».

(١) رعاية التذكير لاعتبار الأهل و القوم في مرجع الضمير، و كان الظاهر أن يقال: لأنهن إذا نحين لا ينتهين.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١١٧

قال: و المجنونة و المغلوبة على عقلها، و لا بأس بالنظر إلى شعرها و جسدها ما لم يتعمد ذلك.

أقول: كأنه (ع) يريد بقوله: ما لم يتعمد ذلك، الريبة.

و في الخصال،: و قال النبي ص لأمر المؤمنين (ع): يا علي أول نظرة لك و الثانية عليك لا لك

أقول:

و روي مثله في الدر المنثور، عن عدة من أصحاب الجوامع عن بريدة عنه (ص) و لفظه: قال رسول الله ص لعلي: لا تتبع النظرة النظرة- فإن لك الأولى و ليست لك الآخرة.

و في جوامع الجامع، عن أم سلمة قالت: كنت عند النبي ص و عنده ميمونة فأقبل ابن أم مكتوم و ذلك بعد أن أمرنا بالحجاب- فقال: احتجبا، فقلنا: يا رسول الله أ ليس أعمى لا يبصرنا؟ فقال: أ فعمياوان أنتما؟ أ لستما تبصرانه؟:

أقول: و رواه في الدر المنثور، عن أبي داود و الترمذي و النسائي و البيهقي عنها.

و في الفقيه، و روى حفص بن البختری عن أبي عبد الله (ع) قال: لا ينبغي للمرأة أن تنكشف- بين يدي اليهودية و النصرانية- فإنهن يصفن ذلك لأزواجهن.

و في المجمع،: في قوله تعالى: «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ» و قيل: معناه العبيد و الإماء:

و روي ذلك عن أبي عبد الله (ع).

و في الكافي، بإسناده عن عبد الرحمن بن أبي عبد الله قال: سألته عن غير أولي الإربة من الرجال. قال: الأحق المولى عليه الذي لا يأتي النساء.

و فيه، بإسناده عن محمد بن جعفر عن أبيه عن آباءه (ع) قال: قال رسول الله ص: من ترك التزويج مخافة العيلة- فقد أساء ظنه بالله عز و جل إن الله يقول «إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْذِرُهُمُ اللَّهُ مِنْ فُضْلِهِ».

أقول: و في المعاني السابقة روايات كثيرة جدا عن أئمة أهل البيت (ع) من أرادها فليراجع كتب الحديث.

و في الفقيه، روى العلاء عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله (ع): في قول الله عز

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١١٨

و جل: «فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا» قال: الخبير أن يشهد أن لا إله إلا الله- و أن محمدا رسول الله، و يكون بيده عمل
يكنسب به أو يكون له حرفة.

أقول: و في معناه روايات أخر.

و في الكافي، بإسناده عن العلاء بن فضيل عن أبي عبد الله (ع) قال: في قوله عز و جل: «فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا-
وَ اتُّوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ» قال:

تضع عنه من نجومه التي لم تكن تريد أن تنقصه، و لا تزيد فوق ما في نفسك. فقلت:

كم؟ فقال: وضع أبو جعفر (ع) عن مملوك ألفا من ستة آلاف.

أقول: و روي في مجمع البيان، و كذا في الدر المنثور، عن علي (ع) ربع المال، و المستفاد من ظواهر الأخبار عدم تعيين
مقدار معين ذي نسبة.

و قد تقدمت في ذيل قوله وَ فِي الرِّقَابِ: التوبة: ٦٠ الجزء التاسع من الكتاب رواية العياشي أن المكاتب يؤتى من سهم
الرقاب من الزكاة.

و في تفسير القمي،": في قوله تعالى: «وَ لَا تُكْرَهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ حَحْصًا»، قال: كانت العرب و قريش يشترون
الإماء- و يضعون عليهن الضريبة الثقيلة و يقولون: اذهبن و ازنين و اكتسبن- فنهاهم الله عن ذلك فقال- وَ لَا تُكْرَهُوا فَتِيَاتِكُمْ
عَلَى الْبِغَاءِ»- إلى قوله- عَمُورٌ رَحِيمٌ» أي لا يؤاخذهن الله تعالى بذلك إذا أكرهن عليه.

و في المجمع،": في قوله تعالى: «لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» قيل: إن عبد الله بن أبي كانت له ست جوار- يكرههن على الكسب
بالزنا، فلما نزل تحريم الزنا أتى رسول الله ص فشكون إليه فنزلت الآية.

أقول: أما أنه كان له من الجوارى من يكرههن على الزنا فقد وردت فيه روايات رواها في الدر المنثور، كما روى هذه الرواية، و
أما كون ذلك بعد نزول تحريم الزنا فيضعفه أن الزنا لم يحرم في المدينة بل في مكة قبل الهجرة بل كانت حرمة من ضروريات
الإسلام منذ ظهرت الدعوة الحققة، و قد تقدم في تفسير سورة الأنعام أن حرمة الفواحش و منها الزنا من الأحكام العامة التي
لا تختص بشريعة دون شريعة.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١١٩

[سورة النور (٢٤): الآيات ٣٥ الى ٤٦]

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)

أَوْ كظلماتٍ في بحرٍ جُبِّيٍّ يَعِشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠) أَمْ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) أَمْ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤)

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦)

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٢٠

(بيان)

تتضمن الآيات مقايسة بين المؤمنين بحقيقة الإيمان والكفار، تميز المؤمنين منهم بأن المؤمنين مهديون بأعمالهم الصالحة إلى نور من ربهم يفيدهم معرفة الله سبحانه و يسلك بهم إلى أحسن الجزاء والفضل من الله تعالى يوم ينكشف عن قلوبهم و أبصارهم الغطاء، والكفار لا تسلك بهم أعمالهم إلا إلى سراب لا حقيقة له، وهم في ظلمات بعضها فوق بعض و لم يجعل الله لهم نورا فما لهم من نور.

و قد بين سبحانه هذه الحقيقة بأن له تعالى نورا عاما تستنير به السماوات و الأرض فتظهر به في الوجود بعد ما لم تكن ظاهرة فيه، فمن البين أن ظهور شيء بشيء يستدعي كون المظهر ظاهرا بنفسه و الظاهر بذاته المظهر لغيره هو النور فهو تعالى نور يظهر السماوات و الأرض بإشراقه عليها كما أن الأنوار الحسية تظهر الأجسام

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٢١

الكثيفة للحس بإشراقها عليها غير أن ظهور الأشياء بالنور الإلهي عين وجودها و ظهور الأجسام الكثيفة بالأنوار الحسية غير أصل وجودها.

و نورا خاصا يستنير به المؤمنون و يهتدون إليه بأعمالهم الصالحة و هو نور المعرفة الذي سيستنير به قلوبهم و أبصارهم يوم تتقلب فيه القلوب و الأبصار فيهتدون به إلى سعادتهم الخالدة فيشاهدون فيه شهود عيان ما كان في غيب عنهم في الدنيا، و مثل تعالى هذا النور بمصباح في زجاجة في مشكاة يشتعل من زيت في نهاية الصفاء فتتألأ الزجاجة كأنها كوكب دري فتزيد نورا على نور، و المصباح موضوع في بيوت العبادة التي يسبح الله فيها رجال من المؤمنين لا تلهيهم عن ذكر ربهم و عبادته تجارة و لا بيع.

فهذه صفة ما أكرم الله به المؤمنين من نور معرفته المتعقب للسعادة الخالدة، و حرمة على الكافرين و تركهم في ظلمات لا يبصرون، فخص من اشتغل بربه و أعرض عن عرض الحياة الدنيا بنور من عنده، و الله يفعل ما يشاء له الملك و إليه المصير يحكم بما أراد ينزل الودق و البرد من سحاب واحد، و يقلب الليل و النهار، و يجعل من الحيوان من يمشي على بطنه و من يمشي على رجلين و من يمشي على أربع و قد خلق الكل من ماء.

و الآيات غير فاقدة للاتصال بما قبلها لما أن بيان الأحكام و الشرائع فيما تقدم انتهى إلى مثل قوله: «و لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَ مَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَقُوا مِن قَبْلِكُمْ وَ مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ» و البيان إظهار لحقائق المعارف فهو تنوير إلهي.

على أن الآيات قرآن و قد سمى سبحانه القرآن في مواضع من كلامه نورا كقوله:

«و أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا»: النساء: ١٧٤.

قوله تعالى: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» إلى آخر الآية. المشكاة على ما ذكره الراغب و غيره: كوة غير نافذة و هي ما يتخذ في جدار البيت من الكو لوضع بعض الأثاث كالمصباح و غيره عليه و هو غير الفانوس.

و الدرّي: من الكواكب العظيم الكثير النور، و هو معدود في السماء، و الإيقاد:

الإشعال، و الزيت: الدهن المتخذ من الزيتون.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٢٢

و قوله: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» النور معروف و هو الذي يظهر به الأجسام الكثيفة لأبصارنا فالأشياء ظاهرة به و هو ظاهر مكشوف لنا بنفس ذاته فهو الظاهر بذاته المظهر لغيره من المحسوسات للبصر. هذا أول ما وضع عليه لفظ النور ثم عمم لكل ما ينكشف به شيء من المحسوسات على نحو الاستعارة أو الحقيقة الثانية فعد كل من الحواس نورا أو ذا نور يظهر به محسوساته كالسمع و الشم و الذوق و اللمس.

ثم عمم لغير المحسوس فعد العقل نورا يظهر به المعقولات كل ذلك بتحليل معنى النور المبصر إلى الظاهر بذاته المظهر لغيره.

و إذ كان وجود الشيء هو الذي يظهر به نفسه لغيره من الأشياء كان مصداقا تاما للنور، ثم لما كانت الأشياء الممكنة الوجود إنما هي موجودة بإيجاد الله تعالى كان هو المصداق الأتم للنور فهناك وجود و نور يتصف به الأشياء و هو وجودها و نورها المستعار المأخوذ منه تعالى و وجود و نور قائم بذاته يوجد و يستتير به الأشياء.

فهو سبحانه نور يظهر به السماوات و الأرض، و هذا هو المراد بقوله: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» حيث أضيف النور إلى السماوات و الأرض ثم حمل على اسم الجلالة، و على هذا ينبغي أن يحمل قول من قال: إن المعنى الله منور السماوات و الأرض، و عمدة الغرض منه أن ليس المراد بالنور المستعار القائم بها و هو الوجود الذي يحمل عليها تعالى الله عن ذلك و تقدس.

و من ذلك يستفاد أنه تعالى غير مجهول لشيء من الأشياء إذ ظهور كل شيء لنفسه أو لغيره إنما هو عن إظهاره تعالى فهو الظاهر بذاته له قبله، و إلى هذه الحقيقة يشير قوله تعالى بعد آيتين: «أَمْ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ» إذ لا معنى للتسبيح و العلم به و بالصلاة مع الجهل بمن يصلون له و يسبحونه فهو نظير قوله: «وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ»: إسرء: ٤٢، و سيوافيك البحث عنه إن شاء الله.

فقد تحصل أن المراد بالنور في قوله: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» نوره تعالى من حيث يشرق منه النور العام الذي يستتير به كل شيء و هو مساو لوجود كل شيء و ظهوره في نفسه و لغيره و هي الرحمة العامة.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٢٣

و قوله: «مَثَلُ نُورِهِ» يصف تعالى نوره، و إضافة النور إلى الضمير الراجع إليه تعالى- و ظاهره الإضافة اللامية- دليل على أن المراد ليس هو وصف النور الذي هو الله بل النور المستعار الذي يفيضه، و ليس هو النور العام المستعار الذي يظهر به كل شيء و هو الوجود الذي يستفيضه منه الأشياء و تتصف، به و الدليل عليه قوله بعد تنمिम المثل: «يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ» إذ لو كان هو النور العام لم يختص به شيء دون شيء بل هو نوره الخاص بالمؤمنين بحقيقة الإيمان على ما يفيد الكلام.

و قد نسب تعالى في سائر كلامه إلى نفسه نورا كما في قوله: «يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ»: الصف: ٨، و قوله: «أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا»: الأنعام: ١٢٢ و قوله: «يُؤْتِكُمْ كَمَلِينَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ»: الحديد: ٢٨، و قوله: «أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ

فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ»: الزمر: ٢٢، وهذا هو النور الذي يجعله الله لعباده المؤمنين يستضيئون به في طريقهم إلى ربهم و هو نور الإيمان و المعرفة.

و ليس المراد به القرآن كما قاله بعضهم فإن الآية تصف حال عامة المؤمنين قبل نزول القرآن و بعده. على أن هذا النور و وصف لهم يتصفون به كما يشير إليه قوله:

«هُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ»: الحديد: ١٩ و قوله: «يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمَمْنَا لَنَا نُورَنَا»: التحريم:

٨، و القرآن ليس وصفا لهم و إن لوحظ باعتبار ما يكشف عنه من المعارف رجع إلى ما قلناه.

و قوله: «كَمِشْكَاتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ» المشبه به مجموع ما ذكر من قوله مشكاة فيها مصباح المصباح «إلخ» لا مجرد المشكاة و إلا فسد المعنى، و هذا كثير في تمثيلات القرآن.

و قوله: «الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ» تشبيه الزجاج بالكوكب الدرّي من جهة ازدياد لمعان نور المصباح و شروقه بتركيب الزجاج على المصباح فتزيد الشعلة بذلك سكونا من غير اضطراب بتموج الأهوية و ضرب الرياح فهي كالكوكب الدرّي في تلالؤ نورها و ثبات شروقتها.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٢٤

و قوله: «يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَ لَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ» خير بعد خبر للمصباح أي المصباح يشتعل أخذًا اشتعاله من شجرة مباركة زيتونة أي إنه يشتعل من دهن زيت مأخوذ منها، و المراد بكون الشجرة لا شرقية و لا غربية أنها ليست نابتة في الجانب الشرقي و لا في الجانب الغربي حتى تقع الشمس عليها في أحد طرفي النهار و يفيء الظل عليها في الطرف الآخر فلا تنضج ثمرتها فلا يصفو الدهن المأخوذ منها فلا تجود الإضاءة بل هي ضاحية تأخذ من الشمس حظها طول النهار فيجود دهنها لكمال نضج ثمرتها.

و الدليل على هذا المعنى قوله: «يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ» فإن ظاهر السياق أن المراد به صفاء الدهن و كمال استعداده للاشتعال و أن ذلك متفرع على الوصفين: لا شرقية و لا غربية.

و أما قول بعضهم: إن المراد بقوله: «لَا شَرْقِيَّةٍ وَ لَا غَرْبِيَّةٍ» أنها ليست من شجر الدنيا حتى تنبت إما في شرق أو في غرب، و كذا قول آخرين: إن المراد أنها ليست من شجر شرق المعمورة و لا من شجر غربها بل من شجر الشام الواقع بين الشرق و الغرب و زيته أفضل الزيت فغير مفهوم من السياق.

و قوله: «نُورٌ عَلَى نُورٍ» خبر لمبتدأ محذوف و هو ضمير راجع إلى نور الزجاجة المفهوم من السياق، و المعنى نور الزجاجة المذكور نور عظيم على نور كذلك أي في كمال التلمع.

و المراد من كون النور على النور قيل: هو تضاعف النور لا تعدده فليس المراد به أنه نور معين أو غير معين فوق نور آخر مثله، و لا أنه مجموع نورين اثنين فقط بل أنه نور متضاعف من غير تحديد لتضاعفه و هذا التعبير شائع في الكلام.

و هذا معنى لا يخلو من جودة و إن كان إرادة التعدد أيضا لا تخلو من لطف و دقة فإن للنور الشارق من المصباح نسبة إليه بالأصالة و الحقيقة و نسبة إلى الزجاجاة التي عليه بالاستعارة و المجاز، و يتغير النور بتغير النسبتين و يتعدد بتعدددهما و إن لم يكن بحسب الحقيقة إلا للمصباح و الزجاجاة صفر الكف منه فللزجاجاة بالنظر إلى تعدد النسب نور غير نور المصباح و هو قائم به و مستمد منه.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٢٥

و هذا الاعتبار جار بعينه في الممثل له فإن نور الإيمان و المعرفة نور مستعار مشرق على قلوب المؤمنين مقتبس من نوره تعالى قائم به مستمد منه.

فقد تحصل أن الممثل له هو نور الله المشرق على قلوب المؤمنين و المثل هو المشبه به النور المشرق من زجاجاة على مصباح موقد من زيت جيد صاف و هو موضوع في مشكاة فإن نور المصباح المشرق من الزجاجاة و المشكاة تجمعه و تعكسه على المستنيرين به يشرق عليهم في نهاية القوة و الجودة.

فأخذ المشكاة للدلالة على اجتماع النور في بطن المشكاة و انعكاسه إلى جو البيت، و اعتبار كون الدهن من شجرة زيتونة لا شرقية و لا غربية للدلالة على صفاء الدهن و جودته المؤثر في صفاء النور المشرق عن اشتعاله و جودة الضياء على ما يدل عليه كون زيتته يكاد يضيء و لو لم تمسسه نار، و اعتبار كون النور على النور للدلالة على تضاعف النور أو كون الزجاجاة مستمدة من نور المصباح في إنارتها.

و قوله: «يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ» استئناف يعلل به اختصاص المؤمنين بنور الإيمان و المعرفة و حرمان غيرهم، فمن المعلوم من السياق أن المراد بقوله: «مَنْ يَشَاءُ» القوم الذين ذكرهم بقوله بعد: «رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَ لَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ» إلخ، فالمراد بمن يشاء المؤمنون بوصف كمال إيمانهم.

و المعنى: أن الله إنما هدى المتلبسين بكمال الإيمان إلى نوره دون المتلبسين بالكفر - الذين سيذكرهم بعد - مجرد مشيئته، و ليس المعنى أن الله يهدي بعض الأفراد إلى نوره دون بعض بمشيئته ذلك حتى يحتاج في تميمه إلى القول بأنه إنما يشاء الهداية إذا استعد المحل إلى الهداية بحسن السريرة، و السيرة و ذلك مما يختص به أهل الإيمان دون أهل الكفر فافهمه.

و الدليل على ذلك ما سيأتي من قوله: «وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» إلى آخر الآيات بالبيان الآتي إن شاء الله.

و قوله: «وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» إشارة إلى أن المثل المضروب تحته طور من العلم، و إنما اختير المثل لكونه أسهل الطرق لتبيين الحقائق و الدقائق و يشترك فيه العالم و العامي فيأخذ منه كل ما قسم له، قال تعالى:

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٢٦

«وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاسٍ لِّمَّا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ»: العنكبوت: ٤٣.

قوله تعالى: «**فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ**» الإذن في الشيء هو إعلام ارتفاع المانع عن فعله، و المراد بالرفع رفع القدر و المنزلة و هو التعظيم، و إذ كانت العظمة و العلو لله تعالى لا يشاركه في ذلك غيره إلا أن ينتسب إليه، و بمقدار ما ينتسب إليه فالإذن منه تعالى في أن ترفع هذه البيوت إنما هو لانتساب ما منها إليه.

و بذلك يظهر أن السبب لرفعها هو ما عطف عليه من ذكر اسمه فيها، و السياق يدل على الاستمرار أو التهيؤ له فيعود المعنى إلى مثل قولنا: «أن يذكر فيها اسمه فيرتفع قدرها بذلك».

و قوله: «**فِي بُيُوتٍ**» متعلق بقوله في الآية السابقة: «**كَمِشْكَاةٍ**» أو قوله:

«**يَهْدِي اللَّهُ**» إلخ، و المال واحد، و من المتيقن من هذه البيوت المساجد فإنها معدة لذكر اسمه فيها محضاً لذلك، و قد قال تعالى: «**وَ مَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا**»:

الحج: ٤٠.

قوله تعالى: «**يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَ الْأَصَالِ رِجَالٌ**» إلى آخر الآية. تسبيحه تعالى تنزيهه عن كل ما لا يليق بساحة قدسه، و الغدو جمع غداة و هو الصبح و الأصال جمع أصيل و هو العصر، و الإلهاء صرف الإنسان عما يعنيه و يهمله، و التجارة على ما قاله الراغب: التصرف في رأس المال طلباً للربح. قال: و ليس في كلامهم تاء بعدها جيم غير هذا اللفظ. و البيع على ما قال: إعطاء المثلن و أخذ الثمن، و قلب الشيء على ما ذكره صرف الشيء من وجه إلى وجه، و التقليل مبالغة فيه و التقلب قبوله فتقلب القلوب و الأبصار تحول منها من وجه من الإدراك إلى وجه آخر.

و قوله: «**يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَ الْأَصَالِ**» صفة لبيوت أو استئناف لبيان قوله:

«**وَ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُهُ**»، و كون التسبيح بالغدو و الأصال كناية عن استمرارهم فيه لا أن التسبيح مقصور في الوقتين لا يسبح له في غيرهما.

و الاكتفاء بالتسبيح من غير ذكر التحميد معه لأنه تعالى معلوم بجميع صفاته الكمالية لا ستره عليه إذ المفروض أنه نور و النور هو الظاهر بذاته المظهر لغيره و إنما يحتاج خلوص المعرفة إلى نفي النقائص عنه و تنزيهه عما لا يليق به فإذا تم التسبيح

لم

يبقى معه غيره و تمت المعرفة ثم إذا تمت المعرفة وقع الثناء و الحمد و بالجملة التوصيف بصفات الكمال موقعه بعد حصول المعرفة كما قال تعالى: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ»: الصافات: ١٦٠، فنزهه عما يصفونه به إلا ما وصفه به من أخلصهم لنفسه من عبادته، و قد تقدم في تفسير سورة الحمد كلام في معنى حمده تعالى.

و بيان آخر حمده تعالى و هو ثنائه بصفة الكمال مساوي لحصول نور المعرفة و تسبيحه و هو التنزيه بنفي ما لا يليق به عنه مقدمة لحصوله، و الآية في مقام بيان خصالهم التي تستدعي هدايتهم إلى نوره فلا جرم اقتصر فيها بذكر ما هي المقدمة و هو التسبيح، فافهم ذلك.

و قوله: «رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَ لَا بَيْعٌ» التجارة إذا قبولت بالبيع كان المفهوم منها بحسب العرف الاستمرار في الاكتساب بالبيع و الشراء و البيع هو العمل الاكتسابي الدفعي فالفرق بينهما هو الفرق بين الدفعة و الاستمرار فمعنى نفي البيع بعد نفي التجارة مع كونه منفيًا بنفيها الدلالة على أنهم لا يلهون عن ربهم في مكاسبهم دائما و لا في وقت من الأوقات، و بعبارة أخرى لا تنسيهم ربهم تجارة مستمرة و لا بيع ما من البيوع التي يوقعونها مدة تجارتهم.

و قيل: الوجه في نفي البيع بعد نفي الهاء التجارة أن الربح في البيع ناجز بالفعل بخلاف التجارة التي هي الحرفة، فعدم الهاء التجارة لا يستلزم عدم الهاء البيع الربح بالفعل، و لذلك نفى البيع ثانيا بعد نفي الهاء التجارة و لذلك كررت لفظة «لا» لتذكير النفي و تأكيده، و هو وجه حسن.

و قوله: «عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ إِقَامِ الصَّلَاةِ وَ إِيْتَاءِ الزَّكَاةِ» الإقام هو الإقامة بحذف التاء تخفيفا.

و المراد بإقامة الصلاة و إيتاء الزكاة الإتيان بجميع الأعمال الصالحة التي كلف الله تعالى عباده بإتيانها في حياتهم الدنيا، و إقامة الصلاة ممثلة لإتيان ما للعبد من وظائف العبودية مع الله سبحانه، و إيتاء الزكاة ممثل لوظائفه مع الخلق و ذلك لكون كل منها ركنا في بابه.

و المقابلة بين ذكر الله و بين إقام الصلاة و إيتاء الزكاة و هما- و خاصة الصلاة-

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٢٨

من ذكر الله يعطي أن يكون المراد بذكر الله الذكر القلبي الذي يقابل النسيان و الغفلة و هو ذكر علمي كما أن أمثال الصلاة و الزكاة ذكر عملي.

فالمقابلة المذكورة تعطي أن المراد بقوله: «عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ إِقَامِ الصَّلَاةِ وَ إِيْتَاءِ الزَّكَاةِ» أنهم لا يشتغلون بشيء عن ذكرهم المستمر بقلوبهم لربهم و ذكرهم الموقت بأعمالهم من الصلاة و الزكاة، و عند ذلك يظهر حسن التقابل بين التجارة و البيع و بين ذكر الله و إقام الصلاة إلخ، لرجوع المعنى إلى أنهم لا يلهيهم مله مستمر و لا موقت عن الذكر المستمر و الموقت، فافهم ذلك.

و قوله: «يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصَارُ» هذا هو يوم القيامة، و المراد بالقلوب و الأبصار ما يعم قلوب المؤمنين و الكافرين و أبصارهم لكون القلوب و الأبصار جمعا محلى باللام و هو يفيد العموم.

و أما تقلب القلوب و الأبصار فالآيات الواصفة لشأن يوم القيامة تدل على أنه بظهور حقيقة الأمر و انكشاف الغطاء كما قال تعالى: «فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ»: ق: ٢٢، و قال: «وَ بَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ: الزمر: ٤٧، إلى غير ذلك من الآيات.

فتنصرف القلوب و الأبصار يومئذ عن المشاهدة و الرؤية الدنيوية الشاغلة عن الله الساترة للحق و الحقيقة إلى سنخ آخر من المشاهدة و الرؤية و هو الرؤية بنور الإيمان و المعرفة فيتبصر المؤمن بنور ربه و هو نور الإيمان و المعرفة فينظر إلى كرامة الله، و يعمى الكافر و لا يجد إلا ما يسوؤه قال تعالى: «وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا»، الزمر: ٦٩ و قال: «يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بَأْيَمَائِهِمْ»: الحديد: ١٢، و قال: «وَ مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى»: الإسراء:

٧٢، و قال: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ»: القيامة: ٢٣ و قال: «كَأَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ»: المطففين: ١٥.

و قد تبين بما مر:

أولا: وجه اختصاص هذه الصفة أعني تقلب القلوب و الأبصار من بين أوصاف يوم القيامة بالذكر و ذلك أن الكلام مسوق لبيان ما يتوسل به إلى هدايته تعالى إلى

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٢٩

نوره و هو نور الإيمان و المعرفة الذي يستضاء به يوم القيامة و يبصر به.

و ثانيا: أن المراد بالقلوب و الأبصار النفوس و بصائرهما.

و ثالثا: أن توصيف اليوم بقوله: «تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصَارُ» لبيان سبب الخوف فهم إنما يخافون اليوم لما فيه من تقلب القلوب و الأبصار، و إنما يخافون هذا التقلب لما في أحد شقيه من الحرمان من نور الله و النظر إلى كرامته و هو الشقاء الدائم و العذاب الخالد و في الحقيقة يخافون أنفسهم.

قوله تعالى: «لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُم مِّنْ فَضْلِهِ وَ اللَّهُ يَزِدُّكَ مِمَّنْ يَشَاءُ بِعِزِّ حِسَابٍ» الظاهر أن لام «لِيَجْزِيََهُمُ» للغاية، و الذي ذكره الله في خلال الكلام هو أعمالهم الصالحة و الأجر الجميل على كل صالح مما ينص عليه كلامه تعالى فقوله:

إنه يجزيهم أحسن ما عملوا معناه أنه يجزيهم بإزاء عملهم في كل باب جزاء أحسن عمل في ذلك الباب، و مرجع ذلك إلى أنه تعالى يزيك أعمالمهم فلا يناقش فيها بالمؤاخذة في جهات توجب نقصها و انحطاط قدرها فيعد الحسن منها أحسن.

و يؤيد هذا المعنى قوله في ذيل الآية: «وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» فإن ظاهره عدم المدافعة في حساب الحسنات بالإغماض عن جهات نقصها فيلحق الحسن بالأحسن.

و قوله: «وَوَيْدَهُمْ مِنْ قَضِيلِهِ» الفضل العطاء، و هذا نص في أنه تعالى يعطيهم من فضله ما ليس بإزاء أعمالهم الصالحة، و أوضح منه قوله تعالى في موضع آخر: «هُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ»: ق: ٣٥، حيث إن ظاهره أن هذا المزيد الموعود أمر وراء ما تتعلق به مشيئتهم.

و قد دل كلامه سبحانه أن أجرهم أن لهم ما يشاءون قال تعالى: «أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ هُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ»: الزمر: ٣٤، و قال: «أَمْ جِنَّةٌ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَ مَصِيرًا هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ»: الفرقان:

١٦، و قال: «هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ»: النحل: ٣١.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٣٠

فهذا المزيد الذي هو وراء جزاء الأعمال أمر أعلى و أعظم من أن تتعلق به مشية الإنسان أو يوصل إليه سعيه، و هذا أعجب ما يعده القرآن المؤمنين و يبشرهم به فأجد التدبر فيه.

و قوله: «وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» استئناف مآله تعليل الجملتين السابقتين بالمشية نظير قوله فيما تقدم: «يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ» على ما مر بيانه.

و محصله أنهم عملوا صالحا و كان لهم من الأجر ما يعادل عملهم كما هو ظاهر قوله: «وَوُتِّيَ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ»: النحل: ١١١، و ما في معناه من الآيات لكنه تعالى يجزيهم لكل عمل من أعمالهم جزاء أحسن عمل يؤتى به في باب من غير أن يداق في الحساب فهذه موهبة ثم يرزقهم أمرا هو أعلى و أرفع من أن تتعلق به مشيئتهم و هذه أيضا موهبة و رزق بغير حساب، و الرزق من الله موهبة محضة من غير أن يملك المرزوقون منه شيئا أو يستحقوه عليه تعالى فله تعالى أن يخص منه ما يشاء لمن يشاء.

غير أنه تعالى وعدهم الرزق و أقسم على إنجازه في قوله: «فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ»: الذاريات: ٢٣، فملكهم الاستحقاق لأصله و هو الذي يجزيهم به على قدر أعمالهم و أما الزائد عليه فلم يملكهم ذلك فله أن يختص به من يشاء فلا يعلل ذلك إلا بمشية و للكلام تنمة ستوافيك إن شاء الله في بحث مستقل.

قوله تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَاهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً» إلى آخر الآية. السراب هو ما يلمع في المفازة كالماء و لا حقيقة له، و القيع و القاع هو المستوي من الأرض و مفرداهما القيعة و القاعة كالتينة و التمرة، و الظمان هو العطشان.

لما ذكر سبحانه المؤمنين و وصفهم بأنهم ذاكرون له في بيوت معظمة لا تلهيهم عنه تجارة و لا بيع، و أن الله الذي هو نور السموات و الأرض يهديهم بذلك إلى نوره فيكرمهم بنور معرفته قابل ذلك بذكر الذين كفروا فوصف أعمالهم تارة بأنها لا حقيقة لها كسراب بقية فلا غاية لها تنتهي إليها، و تارة بأنها كظلمات بعضها فوق بعض لا نور معها و هي حازجة عن النور، و هذه الآية هي التي تتضمن الوصف الأول.

فقوله: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا» شبه أعمالهم- و هي التي يأتون بها من قرايين و أذكار و غيرهما من

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٣١

عبادتهم يتقربون بها إلى آلهتهم- بسراب بقية يحسبه الإنسان ماء و لا حقيقة له يترتب عليها ما يترتب على الماء من رفع العطش و غير ذلك.

و إنما قيل: يحسبه الظمآن ماء مع أن السراب يتراءى ماء لكل راء لأن المطلوب بيان سيره إليه و لا يسير إليه إلا الظمآن يدفعه إليه ما به من ظميا، و لذلك رتب عليه قوله: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا»، كأنه قيل: كسراب بقية يتخيله الظمآن ماء فيسير إليه و يقبل نحوه ليرتوي و يرفع عطشه به، و لا يزال يسير حتى إذا جاءه لم يجده شيئا.

و التعبير بقوله: «جاءه» دون أن يقال: بلغه أو وصل إليه أو انتهى إليه و نحوها للإيماء إلى أن هناك من يريد مجيئه و ينتظره انتظارا و هو الله سبحانه، و لذلك أرفقه بقوله: «وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابًا» فأفاد أن هؤلاء يريدون بأعمالهم الظفر بأمر تبعثهم نحوه فطرتهم و جبلتهم و هو السعادة التي يريد بها كل إنسان بفطرتة و جبلته لكن أعمالهم لا توصلهم إليه، و لا أن الآلهة التي ينتعون بأعمالهم جزاء حسنا منهم لهم حقيقة بل الذي ينتهي إليه أعمالهم و يحيط هو بها و يجزيهم هو الله سبحانه فيوفيهم حسابهم، و توفية الحساب كناية عن الجزاء بما يستوجب حساب الأعمال و إيصال ما يستحقه صاحب الأعمال.

ففي الآية تشبيه أعمالهم بالسراب، و تشبيههم بالظمآن الذي يريد الماء و عنده عذب الماء لكنه يعرض عنه و لا يصغي إلى مولاه الذي ينصحه و يدعوه إلى شربه بل يحسب السراب ماء فيسير إليه و يقبل نحوه، و تشبيه مصيرهم إلى الله سبحانه بحلول الآجال و عند ذلك تمام الأعمال بالظمآن السائر إلى السراب إذا جاءه و عنده مولاه الذي كان ينصحه و يدعوه إلى شرب الماء.

فهؤلاء قوم ألهوا عن ذكر ربحهم و الأعمال الصالحة الهادية إلى نوره و فيه سعادتهم و حسبوا أن سعادتهم عند غيره من الآلهة الذين يدعونهم و الأعمال المقربة إليهم و فيها سعادتهم فأكبوا على تلك الأعمال السرابية و استوفوا ما يمكنهم أن يأتوا بها مدة أعمارهم حتى حلت آجالهم و شارفوا الدار الآخرة فلم يجدوا شيئا مما يؤملونه من أعمالهم و لا أثرا من ألوهية آلهتهم فوفاهم الله حسابهم و الله سريع الحساب.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٣٢

و قوله: «وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ» إنما هو لإحاطة علمه بالقليل والكثير والحقير والخطير والدقيق والجليل والمتقدم والمتأخر على حد سواء.

و اعلم أن الآية و إن كان ظاهرها بيان حال الكفار من أهل الملل و خاصة المشركين من الوثنيين لكن البيان جار في غيرهم من منكري الصانع فإن الإنسان كائنا من كان يرى لنفسه سعادة في الحياة و لا يرتاب أن الوسيلة إلى نيلها أعماله التي يأتي بها فإن كان ممن يقول بالصانع و يراه المؤثر في سعادته بوجه من الوجوه توصل بأعماله إلى تحصيل رضاه و الفوز بالسعادة التي يقدرها له، و إن كان ممن ينكره و ينهي التأثير إلى غيره توصل بأعماله إلى توجيه ما يقول به من المؤثر كالدهر و الطبيعة و المادة نحو سعادة حياته الدنيا التي لا يقول بما وراءها.

فهؤلاء يرون المؤثر الذي بيده سعادة حياتهم غيره تعالى و لا مؤثر غيره و يرون مساعيهم الدنيوية موصلة لهم إلى سعادتهم و ليست إلا سرايا لا حقيقة له و لا يزلون يسعون حتى إذا تم ما قدر لهم من الأعمال بحلول ما سمي لهم من الآجال لم يجدوا عندها شيئاً و عاينوا أن ما كانوا يتمنون منها لم يكن إلا طائف خيال أو حلم نائم، و عند ذلك يوفيههم الله حسابهم و الله سريع الحساب.

قوله تعالى: «أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَعْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ» تشبيهه ثاب لأعمالهم يظهر به أنها حجب متراكمة على قلوبهم تحجبهم عن نور المعرفة، و قد تكرر في كلامه تعالى أنهم في الظلمات كقوله: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ»: البقرة: ٢٥٧، و قوله: «كَمَنْ مَثَلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا»: الأنعام: ١٢٢، و قوله: «كَأَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَأَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُوتُونَ»: المطففين: ١٥.

و قوله: «أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ» معطوف على «كَسْرَابٍ» في الآية السابقة، و البحر اللجى هو البحر المتردد أمواجه منسوب إلى لجة البحر و هي تردد أمواجه، و المعنى: أعمالهم كظلمات كأننة في بحر لجى.

و قوله: «يَعْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ» صفة البحر جيء بها لتقرير الظلمات المفروضة فيه فصفته أنه يغشاه و يحيط به موج كائن من فوقه موج آخر

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٣٣

كائن من فوقه سحاب يحجبه جميعاً من الاستضاءة بأضواء الشمس و القمر و النجوم.

و قوله: «ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ» تقرير لبيان أن المراد بالظلمات المفروضة الظلمات المتراكمة بعضها على بعض دون المتفرقة، و قد أكد ذلك بقوله: «إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا» فإن أقرب ما يشاهده الإنسان منه هو نفسه و هو أقدر على رؤية يده منه على سائر أعضائه لأنه يقربها تجاه باصرته كيفما أراد فإذا أخرج يده و لم يكد يراها كانت الظلمة بالغة.

فهؤلاء و هم سائرون إلى الله و صائرون إليه من جهة أعمالهم كراكب بحر لحي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحب في ظلمات متراكمة كأشد ما يكون و لا نور هناك يستضيء به فيهتدي إلى ساحل النجاة.

و قوله: «وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ» نفي للنور عنهم بأن الله لم يجعله لهم، كيف لا؟ و جاعل النور هو الله الذي هو نور كل شيء، فإذا لم يجعل لشيء نوراً لم يكن له نوراً إذ لا جاعل غيره تعالى.

قوله تعالى: «أَمْ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الطَّيْرِ صَافَاتٍ» إلى آخر الآية، لما ذكر سبحانه أنه نور تستنير به السماوات و الأرض و أنه يختص بمزيد نوره المؤمنين من عباده و الذين كفروا لا نصيب لهم من ذلك شرع يحتج على ذلك بما في هذه الآية و الآيات الأربع التالية لها.

فكونه تعالى نور السماوات و الأرض يدل عليه أن ما في السماوات و الأرض موجود بوجود ليس من عنده و لا من عند شيء مما فيهما لكونه مثله في الفاقة، فوجود ما فيهما من موجود من الله الذي ينتهي إليه الحاجات.

فوجود كل شيء مما فيهما كما يظهر به نفس الوجود يدل على من يظهره بما أفاض عليه من الوجود فهو نور يستنير به الشيء و يدل على منوره بما أشرق عليه من النور و أن هناك نوراً يستنير به كل شيء فكل شيء مما فيهما يدل على أن وراءه شيئاً منها من الظلمة التي غشيتها، و الفاقة التي لزمته، و النقص الذي لا ينفك عنه، و هذا هو تسبيح ما في السماوات و الأرض له سبحانه، و لازمه نفي الاستقلال عن كل من سواه و سلب أي إله و رب يدبر الأمر دونه تعالى.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٣٤

و إلى ذلك يشير قوله: «أَمْ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ» و به يحتج تعالى على كونه نور السماوات و الأرض لأن النور هو ما يظهر به الشيء المستنير ثم يدل بظهوره على مظهره، و هو تعالى يظهر و يوجد بإظهاره و إيجاده الأشياء ثم يدل على ظهوره و وجوده.

و تزيد الآية بالإشارة إلى لطائف يكمل بها البيان:

منها: اختصاصها من في السماوات و الأرض و الطير صافات و هم العقلاء و بعض ذوات الروح بالذكر مع عموم التسبيح لغيرهم لقوله: «وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ».

و لعل ذلك من باب اختيار أمور من أعاجيب الحلقة للذكر فإن ظهور الموجود العاقل الذي يدل عليه لفظ «مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» من عجيب أمر الحلقة الذي يدهش لب ذي اللب، كما أن صفيف الطير الصافات في الجو من أعجب ما يرى من أعمال الحيوان ذي الشعور و أبدعه.

و يظهر من بعضهم أن المراد بقوله: «مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ» إلخ، جميع الأشياء و إنما عبر بلفظ أولي العقل لكون التسبيح المنسوب إليها من شئون أولي العقل أو للتنبيه على قوة تلك الدلالة و وضوح تلك الإشارة تنزيلا للسان الحال منزلة المقال.

و فيه أنه لا يلائم إسناد العلم إليها في قوله بعد: «كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ».

و منها: تصدير الكلام بقوله: «أَمْ تَرَى» و فيه دلالة على ظهور تسبيحهم و وضوح دلالتهم على التنزيه بحيث لا يرتاب فيه ذوريب فكثيرا ما يعبر عن العلم الجازم بالرؤية كما في قوله تعالى: «أَمْ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ»: إبراهيم: ١٩، و الخطاب فيه عام لكل ذي عقل و إن كان خاصا بحسب اللفظ.

و من الممكن أن يكون خطابا خاصا بالنبي ص و قد كان أراه الله تسبيح من في السماوات و الأرض و الطير صافات فيما أراه من ملكوت السماوات و الأرض و ليس ببدع منه (ص) و قد أرى الناس تسبيح الحصة في كفه كما وردت به الأخبار المعتبرة.

و منها: أن الآية تعمم العلم لكل ما ذكر في السماوات و الأرض و الطير، و قد تقدم بعض البحث عنه في تفسير قوله: «وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ»: الإسراء: ٤٤، و ستجيء تنمة الكلام فيه في تفسير سورة حم السجدة إن شاء الله.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٣٥

و قول بعضهم: إن الضمير في قوله: «قَدْ عَلِمَ» راجع إليه تعالى، يدفعه عدم ملائمته للسياق و خاصة لقوله بعده: «وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ» و نظيره قول آخرين: إن إسناد العلم إلى مجموع ما تقدم من المجاز بتنزيل غير العالم منزلة العالم لقوة دلالة على تسبيحه و تنزيهه.

و منها: تخصيصها بالتسبيح بالذكر مع أن الأشياء تشير إلى صفات كماله تعالى و هو التحميد كما تسبحة على ما يدل عليه البرهان و يؤيده قوله: «وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ» و لعل الوجه فيه كون الآيات مسوقة للتوحيد و نفي الشركاء و ذلك بالتنزيه أمس فإن من يدعو من دون الله إلها آخر أو يركن إلى غيره نوعا من الركون إنما يكفر بإثبات خصوصية وجود ذلك الشيء لئله تعالى ففيه إنما يتأتى بالتنزيه دون التحميد فافهمه.

و أما قوله: «كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ» فصلاته دعاؤه و الدعاء توجيهه من الداعي للمدعو إلى حاجته ففيه دلالة على حاجة عند الداعي المدعو في غنى عنها فهو أقرب إلى الدلالة على التنزيه منه على الثناء و التحميد.

و منها: أن الآية تنسب التسييح و العلم به إلى من في السماوات و الأرض فيعم المؤمن و الكافر، و يظهر بذلك أن هناك نورين: نور عام يعم الأشياء و المؤمن و الكافر فيه سواء، و إلى ذلك تشير آيات كآية الذر: «وَ أَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَ لَسْتُمْ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ»: الأعراف: ١٧٢، و قوله:

«فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ»: ق: ٢٢ إلى غير ذلك، و نور خاص و هو الذي تذكره الآيات و يختص بأوليائه من المؤمنين.

فالنور الذي ينور تعالى به خلقه كالرحمة التي يرحمهم بها قسمان: عام و خاص و قد قال تعالى: «وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ»: الأعراف: ١٥٦، و قوله: «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ»: الجاثية: ٣٠، و قد جمع بينهما في قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا»: الحديد: ٢٨، و ما ذكر فيه من النور هو النور على نور بحذاء الثاني من كلفي الرحمة.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٣٦

و قوله: «وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ» و من فعلهم تسييحهم له سبحانه، و هذا التسييح و إن كان في بعض المراحل هو نفس وجودهم لكن صدق اسم التسييح يجوز أن يعد فعلا لهم بهذه العناية.

و في ذكر علمه تعالى بما يفعلون عقيب ذكر تسييحهم ترغيب للمؤمنين و شكر لهم بأن رحم يعلم ذلك منهم و سيحزبهم جزاء حسنا، و إيذان بتمام الحجة على الكافرين، فإن من مراتب علمه تعالى كتب الأعمال و الكتاب المبين التي تثبت فيها أعمالهم فيثبت فيها تسييحهم بوجودهم ثم إنكارهم بألسنتهم.

قوله تعالى: «وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ» سياق الآية و قد وقعت بين قوله: «أَمْ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ» إلخ، و هو احتجاج على شمول نوره العام لكل شيء، و بين قوله: «أَمْ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي» إلخ، و ما يتعقبه و هو احتجاج على اختصاص النور الخاص، يعطي أنها كالمتموسط بين القبيلين أعني بين الأمرين يحتج بها على كليهما، فملكه تعالى لكل شيء و كونه مصيرا لها هو دليل على تعميمه نوره العام و تخصيصه نوره الخاص يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

فقوله: «وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» يخص الملك و يقصره فيه تعالى فله أن يفعل ما يشاء و يحكم بما يريد لا يسأل عما يفعل و هم يسألون، و لازم قصر الملك فيه كونه هو المصير لكل شيء، و إذ كان لا ملك إلا هو و إليه مرجع كل شيء و مصيره فله أن يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

و من هنا يظهر أن المراد- و الله أعلم- بقوله: «وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ» مرجعيته تعالى في الأمور دون المعاد نظير قوله: «أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ»: الشورى: ٥٣.

قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ» إلى آخر الآية. الإجزاء هو الدفع، و الركام المتراكم بعضه على بعض، و الودق هو المطر، و الخلال جمع الخلل و هو الفرجة بين الشينين.

و الخطاب للنبي ص بعنوان أنه سامع فيشمل كل سامع، و المعنى: أ لم تر أنت و كل من يرى أن الله يدفع بالرياح سحابة متفرقا ثم يؤلف بينه ثم يجعله متراكما بعضه على بعض فترى المطر يخرج من خلله و فرجه فينزل على الأرض.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٣٧

و قوله: «وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ يَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ» السماء جهة العلو، و قوله: «مِنْ جِبَالٍ فِيهَا» بيان للسماء، و الجبال جمع جبل و هو معروف، و قوله: «مِنْ بَرَدٍ» بيان للجبال، و البرد قطعات الجمد النازل من السماء، و كونه جبالا فيها كناية عن كثرتة و تراكمه، و السنا بالقصر الضوء.

و الكلام معطوف على قوله: «يُزْجِي»، و المعنى: أ لم تر أن الله ينزل من السماء من البرد المتراكم فيها كالجبال فيصيب به من يشاء فيفسد المزارع و البساتين و ربما قتل النفوس و المواشي و يصرفه عن يشاء فلا يتضررون به يقرب ضوء برقه من أن يذهب بالأبصار.

و الآية- على ما يعطيه السياق- مسوقة لتعليل ما تقدم من اختصاصه المؤمنين بنوره، و المعنى: أن الأمر في ذلك إلى مشيئة تعالى كما ترى أنه إذا شاء نزل من السماء مطرا فيه منافع الناس لنفوسهم و مواشيتهم و مزارعهم و بساتينهم، و إذا شاء نزل بردا فيصيب به من يشاء و يصرفه عن يشاء.

قوله تعالى: «يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ» بيان آخر لرجوع الأمر إلى مشيئة تعالى فقط. و تقليب الليل و النهار تصرفيهما بتبديل أحدهما من الآخر، و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: «وَ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ عَلَى بَطْنِهِ كَالْحَيَّاتِ وَ الدِّيدَانِ، وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ كَالْإِنْسَانِ وَ الطَّيْرِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ كَالْبَهَائِمِ وَ السَّبَاعِ، وَ اقْتَصَرَ سُبْحَانَهُ عَلَى هَذِهِ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ- وَ فِيهِمْ غَيْرَ ذَلِكَ- إِبْجَازًا لِحُصُولِ الْغَرَضِ بِهَذَا الْمَقْدَارِ.

و قوله: «يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ» تعليل لما تقدم من اختلاف الدواب، مع وحدة المادة التي خلقت منها يبين أن الأمر إلى مشيئة الله محضا فله أن يعمم فيضا من فيوضه

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٣٨

على جميع خلقه كالنور العام، و الرحمة العامة و له أن يختص بفيض من فيوضه بعضا من خلقه دون بعض كالنور الخاص و الرحمة الخاصة.

و قوله: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» تعليل لقوله: «يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ» فإن إطلاق القدرة على كل شيء يستوجب أن لا يتوقف شيء من الأشياء في كينونته على أمر وراء مشيئته و إلا كانت قدرته عليه مشروطة بحصول ذلك الأمر و هذا خلف.

و هذا باب من التوحيد دقيق سيتضح بعض الاتضاح إن شاء الله بما في البحث الآتي.

بحث فلسفي [في معنى عليته تعالى للأشياء]

إننا لا نشك في أن ما نجد من الموجودات الممكنة معلولة منتهية إلى الواجب تعالى و أن كثيرا منها- و خاصة في الماديات- تتوقف في وجودها على شروط لا تحقق لها بدونها كالإنسان الذي هو ابن فإن لوجوده توقفا على وجود الوالدين و على شرائط أخرى كثيرة زمانية و مكانية، و إذ كان من الضروري كون كل مما يتوقف عليه جزء من علته التامة كان الواجب تعالى على هذا جزء علته التامة لا علة تامة وحدها.

نعم هو بالنسبة إلى مجموع العالم علة تامة إذ لا يتوقف على شيء غيره و كذا الصادر الأول الذي تتبعه بقية أجزاء المجموع، و أما سائر أجزاء العالم فإنه تعالى جزء علته التامة ضرورة توقفه على ما هو قبله من العلل و ما هو معه من الشرائط و المعدات.

هذا إذا اعتبرنا كل واحد من الأجزاء بحاله ثم نسبنا وحده إلى الواجب تعالى.

و هاهنا نظر آخر أدق و هو أن الارتباط الوجودي الذي لا سبيل إلى إنكاره بين كل شيء و بين علته الممكنة و شروطه و معداته يقضي بنوع من الاتحاد و الاتصال بينها فالواحد من الأجزاء ليس مطلقا منفصلا بل هو في وجوده المتعين مقيد بجميع ما يرتبط به متصل الهوية بغيرها.

فالإنسان الابن الذي كنا نعتبره في المثال المتقدم بالنظر السابق موجودا مستقلا مطلقا فنجد متوقفا على علل و شروط كثيرة و الواجب تعالى أحدها يعود بحسب هذه النظرة هوية مقيدة بجميع ما كان يعتبر توقفه عليه من العلل و الشرائط غير الواجب

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٣٩

تعالى فحقيقة زيد مثلا هو الإنسان ابن فلان و فلانة المتولد في زمان كذا و مكان كذا المتقدم عليه كذا و كذا المقارن لوجوده كذا و كذا من الممكنات.

فهذه هو حقيقة زيد مثلاً و من الضروري أن ما حقيقته ذلك لا تتوقف على شيء غير الواجب فالواجب هو علته التامة التي لا توقف له على غيره، و لا حاجة له إلى غير مشيئته، و قدرته تعالى بالنسبة إليه مطلقة غير مشروطة و لا مقيدة، و هو قوله تعالى: «يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

قوله تعالى: «لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» يريد آية النور و ما يتلوها المبينة لصفة نوره تعالى و الصراط المستقيم سبيله التي لا سبيل للغضب و الضلال إلى من اهتدى إليها كما قال: «أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ»: الحمد: ٧، و قد تقدم الكلام فيه في تفسير سورة الحمد.

و تذييل الآية بقوله: «وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» هو الموجب لعدم تقييد قوله: «لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ» بلفظة إليكم بخلاف قوله قبل آيات:

«لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَ مَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَ مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ».

إذ لو قيل: لقد أنزلنا إليكم آيات مبيّنات و الله يهدي. تبادر إلى الذهن أن البيان اللفظي هداية إلى الصراط المستقيم و أن المخاطبين عامة مهديون إلى الصراط المستقيم و فيهم المنافق و الذين في قلوبهم مرض و الله العالم.

(بحث روائي)

في التوحيد، بإسناده عن العباس بن هلال قال: سألت الرضا (ع) عن قول الله عز و جل: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» فقال: هاد لأهل السماوات و هاد لأهل الأرض.

و في رواية البرقي: هدى من في السماوات و هدى من في الأرض.

أقول إذا كان المراد بالهداية الهداية الخاصة و هي الهداية إلى السعادة الدينية

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٤٠

كان من التفسير بمرتبة من المعنى، و إن كان المراد بها الهداية العامة و هي إيصال كل شيء إلى كماله انطبق على ما تقدم.

و في الكافي، بإسناده عن إسحاق بن جرير قال: سألتني امرأة أن أدخلها على أبي عبد الله (ع) - فاستأذنت لها فأذن لها - فدخلت و معها مولدة لها فقالت له: يا أبا عبد الله - قول الله: «رَيْثُونَةَ لَا شَرْفِيَّةَ وَ لَا غَرْبِيَّةَ» ما عني بهذا؟ فقال لها: أيتها المرأة إن الله لم يضرب الأمثال للشجر - إنما ضرب الأمثال لبني آدم.

و في تفسير القمي، بإسناده عن طلحة بن زيد عن جعفر بن محمد عن أبيه (ع): في هذه الآية «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» قال: بدأ بنور نفسه «مَثَلُ نُورِهِ» مثل هداه في قلب المؤمن «كَمِشْكَاتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ» و المصباح جوف المؤمن و القنديل قلبه، و المصباح النور الذي جعله الله في قلبه.

«يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ» قال: الشجرة المؤمن «زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَ لَا غَرْبِيَّةٍ» قال: على سواد الجبل لا غربية أي لا شرق لها، و لا شرقية أي لا غرب لها- إذا طلعت الشمس طلعت عليها و إذا غربت غربت عليها «يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ» يكاد النور الذي في قلبه يضيء و إن لم يتكلم.

«نُورٌ عَلَى نُورٍ» فريضة على فريضة، و سنة على سنة «يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ» يهدي الله لفرائضه و سننه من يشاء «وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ» فهذا مثل ضربه الله للمؤمن.

ثم قال: فالمؤمن يتقلب في خمسة من النور: مدخله نور، و مخرجه نور، و علمه نور، و كلامه نور، و مصيره يوم القيامة إلى الجنة نور. قلت لجعفر (ع): إنهم يقولون: مثل نور الرب. قال: سبحان الله ليس لله مثل، قال الله: «فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ».

أقول: الحديث يؤيد ما تقدم في تفسير الآية، و قد اكتفى (ع) في تفسير بعض فقرات الآية بذكر بعض المصاديق كالذي ذكره في ذيل قوله: «يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ» و قوله: «نُورٌ عَلَى نُورٍ».

و أما قوله: «سبحان الله ليس لله مثل فإنما ينفي به أن يكون المثل مثلاً للنور

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٤١

الذي هو اسمه تعالى المحمول عليه فكونه مثلاً له تعالى يؤدي إلى الحلول أو الانقلاب تعالى عن ذلك بل هو مثل لنوره المفاض على السماوات و الأرض، و أما الضمير في قوله:

«مَثَلُ نُورِهِ» فلا ضمير في رجوعه إليه تعالى مع الاحتفاظ على المعنى الصحيح.

و في التوحيد، و قد روي عن الصادق (ع): أنه سئل عن قول الله عز و جل:

«اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ - مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ» فقال: هو مثل ضربه الله لنا- فالنبي و الأئمة (ص) من دلالات الله- و آياته التي يهتدى بها إلى التوحيد و مصالح الدين- و شرائع الإسلام و السنن و الفرائض، و لا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أقول: الرواية من قبيل الإشارة إلى بعض المصاديق و هو من أفضل المصاديق و هو النبي ص و الطاهرون من أهل بيته (ع) و إلا فالآية تعم بظاهرها غيرهم من الأنبياء (ع) و الأوصياء و الأولياء.

نعم ليست الآية بعامّة لجميع المؤمنين لأخذها في وصفهم صفات لا تعم الجميع كقوله: «رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَ لَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ» إلخ.

و قد وردت عدة من الأخبار من طرق الشيعة في تطبيق مفردات الآية على النبي ص و أهل بيته (ع) و هي من التطبيق دون التفسير، و من الدليل على ذلك اختلافها في نحو التطبيق

كرواية الكليني في روضة الكافي، بإسناده عن جابر عن أبي جعفر (ع) و فيها: أن المشكاة قلب محمد ص، و المصباح النور الذي فيه العلم، و الزجاجة علي أو قلبه، و الشجرة المباركة الزيتونة التي لا شرقية و لا غربية- إبراهيم (ع) ما كان يهوديا و لا نصرانيا، و قوله: «يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ» إلخ، يكاد أولادهم أن يتكلموا بالنبوة و إن لم ينزل عليهم ملك.

و ما رواه في التوحيد، بإسناده إلى عيسى بن راشد عن الباقر (ع) و فيه: أن المشكاة نور العلم في صدر النبي ص، و الزجاجة صدر علي «يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمَسَّهُ نَارٌ» يكاد العالم من آل محمد يتكلم بالعلم قبل أن يسأل «نُورٌ عَلَى نُورٍ» إمام مؤيد بنور العلم و الحكمة في إثر الإمام من آل محمد.

و ما في الكافي، بإسناده عن صالح بن سهل الهمداني عن الصادق (ع) و فيه: أن المشكاة فاطمة (ع)، و المصباح الحسن (ع)، و الزجاجة الحسين (ع)،

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٤٢

و الشجرة المباركة إبراهيم (ع)، و لا شَرْقِيَّةٍ وَ لا غَرْبِيَّةٍ ما كان يهوديا و لا نصرانيا، و نُورٌ عَلَى نُورٍ إمام بعد إمام، و يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ- يهدي الله للأئمة (ع) من يشاء

و في الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ص: في قوله:

«زَيْتُونَةٌ لَا شَرْقِيَّةٍ وَ لَا غَرْبِيَّةٍ» قال: قلب إبراهيم لا يهودي و لا نصراني).

أقول: و هو من قبيل ذكر بعض المصاديق، و قد ورد مثله من طرق الشيعة عن بعض أئمة أهل البيت (ع) كما تقدم.

و فيه، أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك و بريدة قالوا: قرأ رسول الله ص هذه الآية «فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ» فقام إليه رجل فقال: أي بيوت هذه يا رسول الله؟ قال: بيوت الأنبياء. فقام إليه أبو بكر فقال: يا رسول الله هذا البيت منها لبيت علي و فاطمة؟ قال: نعم من أفاضلها..

أقول: و رواه في المجمع، عنه (ص) مرسلًا

، و روى هذا المعنى القمي في تفسيره بإسناده

عن جابر عن أبي جعفر (ع) و لفظه: قال: هي بيوت الأنبياء و بيت علي (ع) منها.

و هو على أي حال من قبيل ذكر بعض المصاديق على ما تقدم.

و في نهج البلاغة: من كلام له (ع) عند تلاوته «رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَ لَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ» و إن للذكر لأهلا أخذوه من الدنيا بدلا- فلم يشغلهم تجارة و لا بيع عنه يقطعون به أيام الحياة، و يهتفون بالزواجر عن محارم الله في أسمع الغافلين، و يأمرن بالقسط و يأتمرون به- و ينهون عن المنكر و ينتهون عنه.

كأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة- و هم فيها فشهدوا ما وراء ذلك- فكأنما اطلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه، و حققت القيامة عليهم عذابها- فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا- حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس- و يسمعون ما لا يسمعون.

و في المجمع: في قوله تعالى: «رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَ لَا بَيْعٌ»: و

روي عن أبي جعفر و أبي عبد الله (ع): أنهم قوم إذا حضرت الصلاة- تركوا التجارة و انطلقوا إلى الصلاة- و هم أعظم أجرا ممن لم يتجر.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٤٣

أقول: أي لم يتجر و اشتغل بذكر الله كما في روايات أخر.

و في الدر المنثور، عن ابن مردويه و غيره عن أبي هريرة و أبي سعيد الخدري عن النبي ص: في قوله تعالى: «رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَ لَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ» قال: هم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله.

أقول: كأن الرواية غير تامة و تمامها فيما روي عن ابن عباس قال: كانوا رجالا يبتغون من فضل الله يشترون و يبيعون فإذا سمعوا النداء بالصلاة ألقوا ما بأيديهم و قاموا إلى المسجد فصلوا.

و في الجمع،: في قوله تعالى: «وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ» و سئل أمير المؤمنين (ع):

كيف يحاسبهم في حالة واحدة؟ فقال: كما يرزقهم في حالة واحدة.

و في روضة الكافي، بإسناده عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عن أبيه عن أمير المؤمنين (ع) قال: قال رسول الله ص: إن الله عز و جل جعل السحاب غراييل المطر- هي تذيب البرد حتى يصير ماء لكي لا يضر شيئا يصيبه، و الذي ترون فيه من البرد و الصواعق- نعمة من الله عز و جل يصيب بها من يشاء من عباده.

و في تفسير القمي،: في قوله تعالى: «فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ- وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ» قال: على رجلين الناس، و على بطنه الحيات، و على أربع البهائم، و

قال أبو عبد الله (ع): و منهم من يمشي على أكثر من ذلك.

[سورة النور (٢٤): الآيات ٤٧ الى ٥٧]

و يَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ مَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَ إِنْ يَكُنْ هُمْ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَمْ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١)

وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخْشِ اللَّهَ وَ يَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُفْسِمُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) وَ عَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦)

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مَا لَهُمُ النَّارُ وَ لَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٤٤

(بيان)

تتضمن الآيات افتراض طاعة الرسول ص و أنها لا تفارق طاعة الله تعالى، و وجوب الرجوع إلى حكمه و قضائه و أن الإعراض عنه آية النفاق، و تختتم بوعد جميل للصالحين من المؤمنين و إيعاد للكافرين.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٤٥

قوله تعالى: «وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ» «إلخ، بيان حال بعض المنافقين حيث أظهروا الإيمان و الطاعة أولاً ثم تولوا ثانياً فالإيمان بالله هو العقد على تويده و ما شرع من الدين، و الإيمان بالرسول هو العقد على كونه رسولا مبعوثاً من عند ربه أمره أمره و نهيه نهيه و حكمه حكمه من غير أن يكون له من الأمر شيء، و طاعة الله هي تطبيق العمل بما شرعه، و طاعة الرسول الائتثار و الانتهاء عند أمره و نهيه و قبول ما حكم به و قضى عليه.

فالإيمان بالله و طاعته مورد هما نفس الدين و التشريع به، و الإيمان بالرسول و طاعته مورد هما ما أخبر به الرسول من الدين بما أنه يخبر به و ما حكم به و قضى عليه في المنازعات و الانقياد له في ذلك كله.

فبين الإيمانين و الطاعتين فرق ما من حيث سعة المورد و ضيقه، و يشير إلى ذلك ما في العبارة من نوع من التفصيل حيث قيل: «آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالرَّسُولِ» فأشير إلى تعدد الإيمان و الطاعة و لم يقل: آمنا بالله و الرسول بحذف الباء، و الإيمانان مع ذلك متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، قال تعالى: «وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ»: النساء: ١٥٠.

فقوله: «وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنَا» أي عقدنا القلوب على دين الله و تشرعنا به و على أن الرسول لا يخبر إلا بالحق و لا يحكم إلا بالحق.

و قوله: «ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ» أي ثم يعرض طائفة من هؤلاء القائلين: «آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنَا» عن مقتضى قولهم من بعد ما قالوا ذلك.

و قوله: «وَ مَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ» أي ليس أولئك القائلون بالمؤمنين، و المشار إليه باسم الإشارة القائلون جميعاً لا خصوص الفريق المتولين على ما يعطيه السياق لأن الكلام مسوق لدم الجميع.

قوله تعالى: «وَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ» يشهد سياق الآية أن الآيات إنما نزلت في بعض من المنافقين دعوا إلى حكم النبي ص في منازعة وقعت بينه و بين غيره فأبى الرجوع إلى النبي ص و في ذلك نزلت الآيات.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٤٦

و النبي ص إنما كان يحكم بينهم بحكم الله على ما أراه الله كما قال تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ: النساء: ١٠٥. فللحكم نسبة إليه بالمباشرة و نسبة إلى الله سبحانه من حيث كان الحكم في ضوء شريعته و بنصبه النبي ص للحكم و القضاء.

و بذلك يظهر أن المراد بالدعوة إلى الله ليحكم بينهم هي الدعوة إلى المتابعة لما يقتضيه شرعه تعالى في مورد النزاع، و بالدعوة إلى رسوله ليحكم بينهم هي الدعوة إلى متابعة ما يقضى عليه بالمباشرة، و أن الظاهر أن ضمير «لِيَحْكُمَ» للرسول، و إنما أفرد الفاعل و لم يثن إشارة إلى أن حكم الرسول حكمه تعالى.

و الآية بالنسبة إلى الآية السابقة كالتخصص بالنسبة إلى العام فهي تقص إعراضنا معينا منهم و الإعراض المذكور في الآية السابقة منهم إعراض مطلق.

قوله تعالى: «وَ إِنْ يَكُنْ هُمْ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُدْعِينَ» الإذعان الانقياد، و ظاهر السياق و خاصة قوله: «يَأْتُوا إِلَيْهِ» أن المراد بالحق حكم الرسول بدعوى أنه حق لا ينفك عنه، و المعنى و إن يكن الحق الذي هو حكم الرسول لهم لا عليهم يأتوا إلى حكمه منقادين فليسوا بمعرضين عنه إلا لكونه عليهم لا لهم، و لازم ذلك أنهم يتبعون الهوى و لا يريدون اتباع الحق.

قوله تعالى: «أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ» إلى آخر الآية. الحيف الجور.

و ظاهر سياق الآيات أن المراد بمرض القلوب ضعف الإيمان كما في قوله تعالى:

«فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ»: الأحزاب: ٣٢، و قوله: «لَنْ يَمُنَّ بِمَا نُنْفِئُكَ مِنْهُ» الَّذِينَ يَمُنُّونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَتُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ»: الأحزاب:

٦٠، و غير ذلك من الآيات.

و أما كون المراد بمرض القلوب النفاق كما فسر به فيدفعه قوله في صدر الآيات:

«وَ مَا أَوْلِيكَ بِالْمُؤْمِنِينَ» فإنه حكم بنفاقهم، و لا معنى مع إثبات النفاق للاستفهام عن النفاق ثم الإضراب عنه بقوله: «بِإِنْ أَوْلِيكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

و قوله: «أَمْ ارْتَابُوا» ظاهر إطلاق الارتياب و هو الشك أن يكون المراد هو

شكهم في دينهم بعد الإيمان دون الشك في صلاحية النبي ص للحكم أو عدله و نحو ذلك لكونها بحسب الطبع محتاجة إلى بيان بنصب قرينة.

و قوله: «أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولَهُ» أي أم يعرضون عن ذلك لأنهم يخافون أن يجور الله عليهم و رسوله لكون الشريعة الإلهية التي يتبعها حكم النبي ص مبنية على الجور و إماتة الحقوق الحقة، أو لكون النبي ص لا يراعي الحق في قضائه.

و قوله: «بَلْ أَوْلِيكَ هُمْ الظَّالِمُونَ» إضراب عن الترديد السابق بشقوقه الثلاثة و ذلك أن سبب إعراضهم لو كان مرض قلوبهم أو ارتيابهم لم يأتوا إليه مذعنين على تقدير كون الحق لهم بل كانوا يعرضون كان الحق لهم أو عليهم، و أما الخوف من أن يحيف الله عليهم و رسوله فلا موجب له فانه بريء من الحيف و رسوله فليس إعراضهم عن إجابة الدعوة إلى حكم الله و رسوله إلا لكونهم حق عليهم أنهم ظالمون.

و الظاهر أن المراد بالظلم التعدي عن طور الإيمان مع الإقرار به قولاً كما قال أنفا: «وَ مَا أَوْلِيكَ بِالْمُؤْمِنِينَ» أو خصوص التعدي إلى الحقوق غير المالية، و لو كان المراد مطلق الظلم لم يصح الإضراب عن الشقوق الثلاثة السابقة إليه لأنها من مطلق الظلم و يدل عليه أيضا الآية التالية.

و قد بان بما تقدم أن الترديد في أسباب الإعراض على تقدير عدم النفاق بين الأمور الثلاثة حاصر و الأقسام متغايرة فإن محصل المعنى أنهم منافقون غير مؤمنين إذ لو لم يكونوا كذلك كان إعراضهم إما لضعف إيمانهم و إما لزواله بالارتياب و إما للخوف من غير سبب يوجبه فإن الخوف من الرجوع إلى حكم الحاكم إنما يكون إذا احتمل حيفه في حكمه و ميله عن الحق إلى الباطل و لا يشمل ذلك في حكم الله و رسوله.

و قد طال البحث في كلامهم عما في الآية من الترديد و الإضراب و لعل فيما ذكرناه كفاية، و من أراد مزيد من ذلك فليراجع المطولات.

قوله تعالى: «إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يُقُولُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا» إلى آخر الآية سياق قوله: «إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ» و قد أخذ فيه «كَانَ» و وصف الإيمان في «الْمُؤْمِنِينَ» يدل على أن ذلك من مقتضيات طبيعة

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٤٨

الإيمان فإن مقتضى الإيمان بالله و رسوله و عقد القلب على اتباع ما حكم به الله و رسوله التلبية للدعوة إلى حكم الله و رسوله دون الرد.

و على هذا فالمراد بقوله: «إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ» دعوة بعض الناس ممن يمتازون عنهم كدعوة بعض المتنازعين المتخاصمين الآخر إلى التحاكم إلى الله و رسوله ليحكم بينهم، و يدل عليه تصدير الجملة بلفظة «إِذَا» و لو كان

المراد به دعوة الله و رسوله بمعنى إيجاب رجوع المؤمنين في منازلهم إلى حكم الله و رسوله كان ذلك حكماً مؤبداً لا حاجة فيه إلى التقييد بالزمان.

و بذلك يظهر ضعف ما قيل: إن فاعل «دُعُوا» المحذوف هو الله و رسوله، و المعنى: إذا دعاهم الله و رسوله. نعم مرجع الدعوة بآخره إلى دعوة الله و رسوله.

و كيف كان تقصر الآية قول المؤمنين على تقدير الدعوة إلى حكم الله و رسوله في قولهم: سمعنا و أطعنا و هو سمع و طاعة للدعوة الإلهية سواء فرض الداعي هو أحد المتنازعين للآخر أو فرض الداعي هو الله و رسوله أو كان المراد هو السمع و الطاعة لحكم الله و رسوله و إن كان بعيداً.

و انحصار قول المؤمنين عند الدعوة في «سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا» يوجب كون الرد للدعوة ليس من قول المؤمنين فيكون تعدياً عن طور الإيمان، كما يفيد قوله:

«بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» على ما تقدم، فتكون الآية في مقام التعليل للإضراب في ذيل الآية السابقة.

و قد ختمت الآية بقوله: «وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» و فيه قصر الفلاح فيهم لا قصرهم في الفلاح.

قوله تعالى: «وَ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخْشَ اللَّهَ وَ يَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ» و رود الآية في سياق الآيات السابقة و انضمامها إلى سابقتها يعطي أنها في مقام التعليل- كالكبرى الكلية- للآية السابقة حيث حكمت بفلاح من أجاب الدعوة إلى حكم الله و رسوله بالسمع و الطاعة بقيد الإيمان كأنه قيل: إنما أفلح من أجاب إلى حكم الله و رسوله و هو مؤمن لأنه مطيع لله و لرسوله و هو مؤمن حقاً في باطنه خشية الله و في

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٤٩

ظاهره تقواه و من يطع الله و رسوله فيما قضى عليه و يخش الله و يتقه فأولئك هم الفائزون، و الفوز هو الفلاح.

و تشمل الآية الداعي إلى حكم الله و رسوله من المتنازعين كما يشمل المدعو منهما إذا أجاب بالسمع و الطاعة ففيها زيادة على تعليل حكم الآية السابقة تعميم الوعد الحسن للداعي و المدعو جميعاً.

قوله تعالى: «وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجْنَ قُلْ لَا تُفْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً» إلى آخر الآية الجهد الطاقته، و التقدير في قوله: «أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ» أقسموا بالله مبلغ جهدهم في أيمانهم و المراد أقسموا بأغلظ أيمانهم.

و الظاهر أن المراد بقوله: «لَيَخْرُجْنَ» الخروج إلى الجهاد على ما وقع في عدة من الآيات كقوله: «وَ لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاتَهُمْ فَتَبَطَّطَهُمْ وَ قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا»: التوبة: ٤٧.

و قوله: «قُلْ لَا تُقْسِمُوا» نهي عن الإقسام، و قوله: «طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ خَيْرٌ لِمَبْتَدِئِ مَحْذُوفٍ هُوَ الضَّمِيرُ الرَّاجِعُ إِلَى الْخُرُوجِ وَ الْجُمْلَةُ فِي مَقَامِ التَّعْلِيلِ لِلنَّهْيِ عَنِ الْإِقْسَامِ وَ لِذَا جِيءَ بِالفَصْلِ، وَ قَوْلُهُ: «إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» مِنْ تَمَامِ التَّعْلِيلِ.

و معنى الآية: و أقسموا بالله بأغلظ أيمانهم لئن أمرتهم بالخروج إلى الجهاد ليخرجن قل لهم: لا تقسموا بالخروج إلى الجهاد طاعة معروفة من الدين- و هو واجب لا حاجة إلى إيجابه بيمين مغلظ- و إن تكونوا تقسمون لأجل أن ترضوا الله و رسوله بذلك فالله خبير بما تعملون لا يغره إغلاظكم في الإيمان.

و قيل: المراد بالخروج خروجهم من ديارهم و أموالهم لو حكم الرسول بذلك، و قوله: «طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ» مبتدأ لخبر محذوف، و التقدير: طاعة معروفة للنبي خير من إقسامكم، و معنى الآية: و أقسموا بالله بأغلظ الأيمان لئن أمرتهم و حكمت عليهم في منازعاتهم بالخروج من ديارهم و أموالهم ليخرجن منها قل لهم: لا تقسموا لأن طاعة حسنة منكم للنبي خير من إقسامكم بالله و الله خبير بما تعملون.

و فيه أن هذا المعنى و إن كان يؤكد اتصال الآية بما قبلها بخلاف المعنى السابق لكنه لا يلائم التصريح السابق بردهم الدعوة إلى الله و رسوله ليحكم بينهم لأنهم إذ كانوا

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٥٠

تولوا و أعرضوا عن حكم الله و رسوله لم يكن يسعهم أن يقسموا للنبي ص لئن أمرهم في حكمه بالخروج من ديارهم و أموالهم ليخرجن و هو ظاهر، اللهم إلا أن يكون المقسمون فريقا آخر منهم غير الرادين للدعوة المعرضين عن الحكم، و حينئذ كان حمل «لَيُخْرِجَنَّ» على هذا المعنى لا دليل يدل عليه.

قوله تعالى: «قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ» إلى آخر الآية، أمر بطاعة الله فيما أنزل من الدين، و أمر بطاعة الرسول فيما يأتيهم به من ربهم و يأمرهم به في أمر دينهم و دنياهم، و تصدير الكلام بقوله: «قُلْ» إشارة إلى أن الطاعة جميعا لله، و قد أكده بقوله: «وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ» دون أن يقول: و أطيعوني لأن طاعة الرسول بما هو طاعة الرسول طاعة المرسل، و بذلك تتم الحجة.

و لذلك عقب الكلام:

أولا بقوله: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ» أي فإن تتولوا و تعرضوا عن طاعة الرسول لم يضر ذلك الرسول فإنما عليه ما حمل من التكليف و لا يمسكم منه شيء و عليكم ما حملتم من التكليف و لا يمسه منه شيء فإن الطاعة جميعا لله سبحانه.

و ثانيا بقوله: «وَ إِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا» أي و إن كان لكل منكم و منه ما حمل لكن إن تطيعوا الرسول تهتدوا لأن ما يجيء به إليكم و ما يأمركم به من الله و بأمره و الطاعة لله و فيه الهداية.

و ثالثا بقوله **وَ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ** و هو بمنزلة التعليل لما تقدمه أي إن ما حمله الرسول من التكليف هو التبليغ فحسب فلا بأس عليه إن خالفتم ما بلغ و إذ كان رسولا لم يحتمل إلا التبليغ فطاعته طاعة من أرسله و في طاعة من أرسله و هو الله سبحانه اهتداؤكم.

قوله تعالى **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.**

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٥١

ظاهر وقوع الآية موقعها أنها نزلت في ذيل الآيات السابقة من السورة و هي مدنية و لم تنزل بمكة قبل الهجرة على ما يؤيد سياقها و خاصة ذيلها.

فالآية على هذا وعد جميل للذين آمنوا و عملوا الصالحات أن الله تعالى سيجعل لهم مجتمعا صالحا يخص بهم فيستخلفهم في الأرض و يمكن لهم دينهم و يبدلهم من بعد خوفهم أمانا لا يخافون كيد منافق و لا صد كافر يعبدونه لا يشركون به شيئا.

فقوله **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** من فيه تبعية لبيانها و الخطاب لعامة المسلمين و فيهم المنافق و المؤمن و في المؤمنين منهم من يعمل الصالحات و من لا يعمل الصالحات و الوعد خاص بالذين آمنوا منهم و عملوا الصالحات محضا.

و قوله **لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** إن كان المراد بالاستخلاف إعطاء الخلافة الإلهية كما ورد في آدم و داود و سليمان (ع) قال تعالى **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**: البقرة- ٣٠ و قال يا داؤد **إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ**: ص- ٢٦ و قال **وَ وَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ**: النمل- ١٦ فالمراد بالذين من قبلهم خلفاء الله من أنبيائه و أوليائه و لا يخلو من بعد كما سيأتي.

و إن كان المراد به إراث الأرض و تسليط قوم عليها بعد قوم كما قال **إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**: الأعراف- ١٢٨ و قال **أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**: الأنبياء- ١٠٥ فالمراد بالذين من قبلهم المؤمنون من أمم الأنبياء الماضين الذين أهلك الله الكافرين و الفاسقين منهم و نجى الخالص من مؤمنهم كقوم نوح و هود و صالح و شعيب كما أخبر عن جمعهم في قوله تعالى **وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَ لَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَ خَافَ وَعِيدِ**:

إبراهيم- ١٤ فهؤلاء الذين أخلصوا الله فنجاهم فعقدوا مجتمعا صالحا و عاشوا فيه حتى طال عليهم الأمد فقسست قلوبهم.

و أما قول من قال إن المراد بالذين استخلفوا من قبلهم بنو إسرائيل لما أهلك الله فرعون و جنوده فأورثهم أرض مصر و الشام و مكنهم فيها كما قال تعالى فيهم

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٥٢

و نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً وَ جَعَلْنَاهُمُ الْوَارِثِينَ وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ: القصص- ٦.

ففيه أن المجتمع الإسرائيلي المنعقد بعد نجاتهم من فرعون و جنوده لم يصف من الكفر و النفاق و الفسق و لم يخلص للذين آمنوا و عملوا الصالحات و لا حيناً على ما ينص عليه القرآن الكريم في آيات كثيرة و لا وجه لتشبيه استخلاف الذين آمنوا و عملوا الصالحات باستخلافهم و فيهم الكافر و المنافق و الطالح و الصالح.

و لو كان المراد تشبيه أصل استخلافهم بأصل استخلاف الذين من قبلهم و هم بنو إسرائيل كيفما كان لم يحتج إلى إشخاص المجتمع الإسرائيلي للتشبيه به و في زمن نزول الآية و قبل ذلك أمم أشد قوة و أكثر جمعا منهم كالروم و الفرس و كلد و غيرهم و قد قال تعالى في عاد الأولى و ثمود إِذْ جَعَلْنَاهُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ: الأعراف- ٦٩ و قال إِذْ جَعَلْنَاهُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ: الأعراف- ٧٤ و قد خاطب بذلك الكفار من هذه الأمة فقال وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ: الأنعام- ١٦٥ و قال هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ: فاطر- ٣٩.

فإن قلت لم لا يجوز أن يكون التشبيه ببني إسرائيل ثم يؤدي حق هذا المجتمع الصالح بما يعقبه من قوله وَ لِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ إلى آخر الوعد قلت نعم و لكن لا موجب حينئذ لاختصاص استخلاف بني إسرائيل لأن يشبه به و أن يكون المراد بالذين من قبلهم بني إسرائيل فقط كما تقدم.

و قوله وَ لِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ تَمَكِينِ الشَّيْءِ إقراره في مكان و هو كناية عن ثبات الشيء من غير زوال و اضطراب و تزلزل بحيث يؤثر أثره من غير مانع و لا حاجز فتمكن الدين هو كونه معمولاً به في المجتمع من غير كفر به و استهانة بأمره و مأخوذاً بأصول معارفه من غير اختلاف و تخاصم و قد حكم الله سبحانه في مواضع من كلامه أن الاختلاف في الدين من بغي المختلفين كقوله وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ: البقرة- ٢١٣.

و المراد بدينهم الذي ارتضى لهم دين الإسلام و أضاف الدين إليهم تشريفا لهم و لكونه من مقتضى فطرتهم.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٥٣

و قوله وَ لِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً هُوَ كقوله وَ لِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ عطف على قوله لِيَسْخَلِفَنَّهُمْ و أصل المعنى و ليبدلن خوفهم أمانة فنسبة التبديل إليهم إما على المجاز العقلي أو على حذف مضاف يدل عليه قوله مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ و التقدير و ليبدلن خوفهم أو كون أَمْناً بمعنى أمين.

و المراد بالخوف على أي حال ما كان يقاسيه المؤمنون في صدر الإسلام من الكفار و المنافقين.

و قوله **يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً** الأوفق بالسياق أن يكون حالاً من ضمير **وَ لِيَبَدِّلَنَّهُمْ** أي و ليبدلن خوفهم أمنا في حال يعبدونني لا يشركون بي شيئاً.

و الالتفات في الكلام من الغيبة إلى التكلم و تأكيد **يَعْبُدُونِي** بقوله **لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً** و وقوع النكرة شيئاً في سياق النفي الدال على نفي الشرك على الإطلاق كل ذلك يقضي بأن المراد عبادتهم لله عبادة خالصة لا يداخلها شرك جلي أو خفي و بالجملة يبدل الله مجتمعهم مجتمعاً آمناً لا يعبد فيه إلا الله و لا يتخذ فيه رب غيره.

و قوله **وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ظاهر السياق كون ذلك إشارة إلى الموعود و الأنسب على ذلك كون **كَفَرَ** من الكفران مقابل الشكر و المعنى و من كفر و لم يشكر الله بعد تحقق هذا الوعد بالكفر أو النفاق أو سائر المعاصي الموبقة فأولئك هم الفاسقون الكاملون في الفسق و هو الخروج عن زي العبودية.

و قد اشتهد الخلاف بين المفسرين في الآية.

فقيل إنها واردة في أصحاب النبي ص و قد أنجز الله وعده لهم باستخلافهم في الأرض و تمكين دينهم و تبديل خوفهم أمناً بما أعز الإسلام بعد رحلة النبي في أيام الخلفاء الراشدين و المراد باستخلافهم استخلاف الخلفاء الأربعة بعد النبي ص أو الثلاثة الأول منهم و نسبة الاستخلاف إلى جميعهم مع اختصاصه ببعضهم و هم الأربعة أو الثلاثة من قبيل نسبة أمر البعض إلى الكل كقولهم قتل بنو فلان و إنما قتل بعضهم.

و قيل هي عامة لأمة محمد ص و المراد باستخلافهم و تمكين دينهم و تبديل

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٥٤

خوفهم أمناً إيراثهم الأرض كما أورثها الله الأمم الذين كانوا قبلهم أو استخلاف الخلفاء بعد النبي ص على اختلاف التقرير و تمكين الإسلام و انضمام أعداء الدين و قد أنجز الله وعده بما نصر الإسلام و المسلمين بعد الرحلة ففتحوا الأمصار و سخروا الأقطار.

و على القولين الآية من ملاحم القرآن حيث أخبر بأمر قبل أوان تحققه و لم يكن مرجحوا ذلك يومئذ.

و قيل إنها في المهدي الموعود (ع) الذي تواترت الأخبار على أنه سيظهر فيملاً الأرض قسطاً و عدلاً كما ملئت ظلماً و جوراً و أن المراد بالذين آمنوا و عملوا الصالحات النبي ص و الأئمة من أهل بيته (ع).

و الذي يعطيه سياق الآية الكريمة على ما تقدم من البحث بالتحرز عن المسامحات التي ربما يرتكبها المفسرون في تفسير الآيات هو أن الوعد لبعض الأمة لا لجميعها و لا لأشخاص خاصة منهم و هم الذين آمنوا منهم و عملوا الصالحات فالآية نص في ذلك و لا قرينة من لفظ أو عقل يدل على كونهم هم الصحابة أو النبي و أئمة أهل البيت عليهم الصلاة و السلام

و لا على أن المراد بالذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات جميع الأمة و إنما صرف الوعد إلى طائفة خاصة منهم تشريفا لهم أو لمزيد العناية بهم فهذا كله تحكم من غير وجه.

و المراد باستخلافهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم عقد مجتمع مؤمن صالح منهم يرثون الأرض كما ورثها الذين من قبلهم من الأمم الماضين أولي القوة و الشوكة و هذا الاستخلاف قائم بمجتمعهم الصالح من دون أن يختص به أشخاص منهم كما كان كذلك في الذين من قبلهم و أما إرادة الخلافة الإلهية بمعنى الولاية على المجتمع كما كان لداود و سليمان و يوسف (ع) و هي السلطنة الإلهية فمن المستبعد أن يعبر عن أنبيائه الكرام بلفظ **الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** و قد وقعت هذه اللفظة أو ما بمعناها في أكثر من خمسين موضعا من كلامه تعالى و لم يقصد و لا في واحد منها الأنبياء الماضون مع كثرة ورود ذكرهم في القرآن نعم ذكرهم الله بلفظ **رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ** أو **رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي** أو نحوها بالإضافة إلى الضمير الراجع إلى النبي ص.

و المراد بتمكين دينهم الذي ارتضى لهم كما مر ثبات الدين على ساقه بحيث لا

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٥٥

يزلزه اختلافهم في أصوله و لا مساهلتهم في إجراء أحكامه و العمل بفروعه و خلوص المجتمع من وصمة النفاق فيه.

و المراد من تبديل خوفهم أمنا انبساط الأمن و السلام على مجتمعهم بحيث لا يخافون عدوا في داخل مجتمعهم أو خارجه متجاهرا أو مستخفيا على دينهم أو دنياهم.

و قول بعضهم إن المراد الخوف من العدو الخارج من مجتمعهم كما كان المسلمون يخافون الكفار و المشركين القاصدين إطفاء نور الله و إبطال الدعوة.

تحكم مدفوع بإطلاق اللفظ من غير قرينة معينة للمدعي على أن الآية في مقام الامتنان و أي امتنان على قوم لا عدو يقصدهم من خارج و قد أحاط بمجتمعهم الفساد و عمته البلية لا أمن لهم في نفس و لا عرض و لا مال الحرية فيه للقدرة الحاكمة و السبق فيه للفئة الباغية.

و المراد بكونهم يعبدون الله لا يشركون به شيئا ما يعطيه حقيقة معنى اللفظ و هو عموم إخلاص العبادة و انهدام بنيان كل كرامة إلا كرامة التقوى.

و المتحصل من ذلك كله أن الله سبحانه يعد الذين آمنوا منهم و عملوا الصالحات أن سيجعل لهم مجتمعا صالحا خالصا من وصمة الكفر و النفاق و الفسق يرث الأرض لا يحكم في عقائد أفراده عامة و لا أعمالهم إلا الدين الحق يعيشون آمنين من غير خوف من عدو داخل أو خارج، أحرارا من كيد الكائدين و ظلم الظالمين و تحكم المتحكمين.

و هذا المجتمع الطيب الطاهر على ما له من صفات الفضيلة و القداسة لم يتحقق و لم ينعقد منذ بعث النبي ص إلى يومنا هذا، و إن انطبق فليطبق على زمن ظهور المهدي (ع) على ما ورد من صفته في الأخبار المتواترة عن النبي ص و أئمة أهل البيت (ع) لكن على أن يكون الخطاب للمجتمع الصالح لا له (ع) وحده.

فإن قلت: ما معنى الوعد حينئذ للذين آمنوا منهم و عملوا الصالحات و ليس المهدي (ع) أحد المخاطبين حين النزول و لا واحد من أهل زمان ظهوره بينهم؟

قلت: فيه خلط بين الخطابات الفردية و الاجتماعية أعني الخطاب المتوجه إلى أشخاص القوم بما هم أشخاص بأعيانهم و الخطاب المتوجه إليهم بما هم قوم على نعت كذا فالأول لا يتعدى إلى غير أشخاصهم و لا ما تضمنه من وعد أو وعيد أو غير ذلك

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٥٦

يسري إلى غيرهم و الثاني يتعدى إلى كل من اتصف بما ذكر فيه من الوصف و يسري إليه ما تضمنه من الحكم، و خطاب الآية من القبيل الثاني على ما تقدم.

و من هذا القبيل أغلب الخطابات القرآنية المتوجهة إلى المؤمنين و الكفار، و منه الخطابات الدائمة لأهل الكتاب و خاصة اليهود بما فعله أسلافهم و للمشركين بما صنعه آبائهم.

و من هذا القبيل خاصة ما ذكر من الوعد في قوله تعالى: «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ»: الإسراء: ٧ فإن الموعودين لم يعيشوا إلى زمن إنجاز هذا الوعد، و نظيره الوعد المذكور في قول ذي القرنين على ما حكاه الله: «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَ كَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا»: الكهف: ٩٨، و كذا وعده تعالى الناس بقيام الساعة و انطواء بساط الحياة الدنيا بنفخ الصور كما قال: «تَنفَلَّتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَعَثَةٌ»: الأعراف: ١٨٧، فوعد الصالحين من المؤمنين بعنوان أنهم مؤمنون صالحون بوعد لا يدركه أشخاص زمان النزول بأعيانهم و لما يوجد أشخاص المجتمع الذي يدرك إنجاز الوعد مما لا ضير فيه البتة.

فالحق أن الآية إن أعطيت حق معناها لم تنطبق إلا على المجتمع الموعود الذي سينعقد بظهور المهدي (ع) و إن سُمح في تفسير مفرداتها و جملها و كان المراد باستخلاف الذين آمنوا منهم و عملوا الصالحات استخلاف الأمة بنوع من التغليب و نحوه، و بتمكين دينهم الذي ارتضاه لهم كونهم معروفين في الدنيا بالأمة المسلمة و عدهم الإسلام ديناً لهم و إن تفرقوا فيه ثلاثاً و سبعين فرقة يكفر بعضهم بعضاً و يستبيح بعضهم دماء بعض و أعراضهم و أموالهم، و بتبديل خوفهم أننا يعبدون الله و لا يشركون به شيئاً عزة الأمة و شوكتها في الدنيا و انبساطها على معظم المعمورة و ظواهر ما يأتون به من صلاة و صوم و حج و إن ارتحل الأمن من بينهم أنفسهم و ودعهم الحق و الحقيقة، فالوجه أن الموعود بهذا الوعد الأمة، و المراد

باستخلافهم ما رزقهم الله من العزة و الشوكة بعد الهجرة إلى ما بعد الرحلة و لا موجب لقصر ذلك في زمن الخلفاء الراشدين بل يجري فيما بعد ذلك إلى زمن انحطاط الخلافة الإسلامية.

و أما تطبيق الآية على خلافة الخلفاء الراشدين أو الثلاثة الأول أو خصوص علي

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٥٧

(ع) فلا سبيل إليه البتة.

قوله تعالى: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» مناسبة مضمون الآية لما سبقت لبيانها الآيات السابقة تعطي أنها من تمامها.

فقوله: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ» أمر في الحقيقة بطاعته تعالى فيما شرعه لعباده، و تخصيص الصلاة و الزكاة بالذكر لكونهما ركنين في التكليف الراجعة إلى الله تعالى و إلى الخلق، و قوله: «وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ» إنفاذ لولايته (ص) في القضاء و الحكمة.

و قوله: «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» تعليل للأمر بما في الأمور به من المصلحة، و المعنى- على ما يعطيه السياق-: أطيعوا الله و أطيعوا الرسول فإن في هاتين الطاعتين رجاء أن تشملكم الرحمة الإلهية فينجز لكم وعده أو يجعل لكم إنجازَه فإن ارتفاع النفاق من بين المسلمين و عموم الصلاح و الاتفاق على كلمة الحق مفتاح انعقاد مجتمع صالح يدر عليهم بكل خير.

قوله تعالى: «لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مَاوَاهُمْ النَّارُ وَ لَبِئْسَ الْمَصِيرُ» من تمام الآيات السابقة، و فيها تأكيد ما مر من وعد الاستخلاف في الأرض و تمكين الدين و تبديل الخوف أماناً.

يخاطب تعالى نبيه ص بعد الوعد- بخطاب مؤكد- أن لا يظن أن الكفار معجزين لله في الأرض فيمنعونه بما عندهم من القوة و الشوكة من أن ينجز وعده، و هذا في الحقيقة بشرى خاصة بالنبي ص بما أكرم به أمته و أن أعداءه سينهزمون و يغلبون و لذلك خصه بالخطاب على طريق الالتفات.

و لكون النهي المذكور في معنى أن الكفار سينتهون عن معارضة الدين و أهله عطف عليه قوله: «وَمَاوَاهُمُ النَّارُ» إلخ، كأنه قيل: هم مقهورون في الدنيا و مسكنهم النار في الآخرة و بئس المصير.

(بحث روائي)

في المجمع،": في قوله تعالى: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» الآيات- قيل: نزلت الآيات في

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٥٨

رجل من المنافقين- كان بينه و بين رجل من اليهود حكومة- فدعاه اليهودي إلى رسول الله ص و دعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف.

و حكى البلخي أنه كانت بين علي و عثمان منازعة- في أرض اشتراها من علي فخرجت فيها أحجار- و أراد ردها بالعيب فلم يأخذها- فقال: بيني و بينك رسول الله ص- فقال الحكم بن أبي العاص: إن حاكمته إلى ابن عمه يحكم له فلا تحاكمه إليه فنزلت الآيات":، و هو المروي عن أبي جعفر (ع) أو قريب منه:

أقول: و في تفسير روح المعاني، عن الضحاك": أن النزاع كان بين علي و المغيرة بن وائل- و ذكر قريبا من القصة.

و في الجمع:، في قوله تعالى: «إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ» الآية: و

روي عن أبي جعفر: أن المعنى بالآية أمير المؤمنين (ع).

و في الدر المنثور:، في قوله تعالى: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ- وَ عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ» الآية:، أخرج ابن جرير و ابن قانع و الطبراني عن علقمة بن وائل الحضرمي عن سلمة بن يزيد الجهني قال: قلت: يا رسول الله أ رأيت إن كان علينا أمراء من بعدك يأخذوننا بالحق الذي علينا- و يمنعونا الحق الذي جعله الله لنا نقاتلهم و نبغضهم؟ فقال النبي ص: عليهم ما حملوا و عليكم ما حملتم.

أقول: و في معناه بعض روايات أخر مروية فيه لكن ينبغي أن لا يرتاب في أن الإسلام بما فيه من روح إحياء الحق و إماتة الباطل يأبى عن إجازة ولاية الظلمة المتظاهرين بالظلم و إباحة السكوت و تحمل الضيم و الاضطهاد قبال الطغاة و الفجرة لمن يجد إلى إصلاح الأمر سبيلا و قد اتضح بالأبحاث الاجتماعية اليوم أن استبداد الولاة برأيهم و اتباعهم لأهوائهم في تحكمتهم أعظم خطرا و أخطر من إثارة الفتن و إقامة الحروب في سبيل إجلاتهم إلى الحق و العدل.

و في الجمع:، في قوله تعالى: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ» الآية: و اختلف في الآية- و

المروي عن أهل البيت (ع) أنها في المهدي من آل محمد.

قال: و روى العياشي بإسناده عن علي بن الحسين (ع): أنه قرأ الآية و قال:

هم و الله شيعتنا أهل البيت- يفعل ذلك بهم على يدي رجل منا و هو مهدي هذه الأمة،

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٥٩

و هو الذي قال رسول الله ص- لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يأتي رجل من عترتي اسمه اسمي - يملأ الأرض عدلا و قسطا كما ملئت ظلما و جورا:

و روي مثل ذلك عن أبي جعفر و أبي عبد الله (ع).

أقول: و بذلك وردت الأخبار عن أئمة أهل البيت (ع)، و قد تقدم بيان انطباق الآية على ذلك.

و قال في المجمع، بعد نقل الرواية: فعلى هذا يكون المراد بالذين آمنوا و عملوا الصالحات النبي و أهل بيته عليهم الصلاة و السلام انتهى. و قد عرفت أن المراد به عام و الرواية لا تدل على أزيد من ذلك حيث قال (ع): هم و الله شيعتنا أهل البيت يفعل ذلك بهم على يدي رجل منا الحديث.

و في الدر المنثور، أخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن البراء: في قوله: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ» الآية- قال: فينا نزلت و نحن في خوف شديد.

أقول: ظاهره أن المراد بالذين آمنوا الصحابة و قد عرفت أن الآية لا دلالة فيها عليه بوجه بل الدلالة على خلافه.

و فيه، أخرج ابن المنذر و الطبراني في الأوسط و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقي في الدلائل و الضياء في المختارة عن أبي بن كعب قال: لما قدم رسول الله ص و أصحابه المدينة و أوتهم الأنصار- رمتهم العرب عن قوس واحدة- فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح و لا يصبحون إلا فيه- فقالوا: أترون أنا نعيش حتى نبني آمنين مطمئنين- لا نخاف إلا الله فنزلت: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» الآية.

أقول: هو لا يدل على أزيد من سبب النزول و أما أن المراد بالذين آمنوا من هم؟ و أن الله متى أنجز أو ينجز هذا الوعد؟ فلا تعرض له به.

و نظيرته روايته الأخرى:

لما نزلت على النبي ص «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» الآية- قال: بشر هذه الأمة بالسنة و الرفعة و الدين و النصر و التمكين في الأرض- فمن عمل منكم عمل الآخرة للدنيا- لم يكن له في الآخرة من نصيب.

فإن تبشير الأمة بالاستخلاف لا يستلزم كون المراد بالذين آمنوا في الآية جميع الأمة أو خصوص الصحابة أو نفرا معدودا منهم.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٦٠

و في نهج البلاغة: في كلام له لعمر لما استشاره- لانطلاقه لقتال أهل فارس حين تجمعوا للحرب قال (ع): إن هذا الأمر لم يكن نصره و لا خذلانه بكثرة و لا بقلة، و هو دين الله الذي أظهره، و جنده الذي أعزه و أيده- حتى بلغ ما بلغ و طلع حيث طلع، و نحن على موعود من الله تعالى حيث قال عز اسمه: وعد الله الذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات- ليستخلفنهم في الأرض- و ليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم- و لبيدلتهم من بعد خوفهم أمنا.

و الله تعالى منجز وعده و ناصر جنده، و مكان القيم في الإسلام مكان النظام من الخرز- فإن انقطع النظام تفرق و رب متفرق لم يجتمع، و العرب اليوم و إن كانوا قليلا- فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع- فكن قطبا و استدر الرحي بالعرب، و أصلهم دونك نار الحرب- فإنك إن شخصت من هذه الأرض- تنقضت عليك العرب من أطرافها و أقطارها- حتى يكون ما تدع وراءك من العورات- أهم إليك مما بين يديك، و كان قد آن للأعاجم أن ينظروا إليك غدا يقولون: هذا أصل العرب فإذا قطعتموه استرحتم- فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك و طمعهم فيك.

فأما ما ذكرت من عددهم- فإننا لم نقاتل فيما مضى بالكثرة- و إنما كنا نقاتل بالنصر و المعونة.

أقول: و قد استدل به في روح المعاني، على ما ارتضاه من كون المراد بالاستخلاف في الآية ظهور الإسلام و ارتفاع قدره في زمن الخلفاء الراشدين و هو بمعزل عن ذلك بل دليل على خلافه، فإن ظاهر كلامه أن الوعد الإلهي لم يتم أمر إنجازه بعد و أنهم يومئذ في طريقه حيث يقول: و الله منجز وعده، و أن الدين لم يمكن بعد و لا الخوف بدل أمنا و كيف لا؟ و هم بين خوفين خوف من تنقض العرب من داخل و خوف من مهاجمة الأعداء من خارج.

و في الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن أبي الشعثاء قال: "كنت جالسا مع حذيفة و ابن مسعود- فقال حذيفة ذهب النفاق- إنما كان النفاق على عهد رسول الله ص، و إنما هو اليوم الكفر بعد الإيمان- فضحك ابن مسعود ثم قال: هم تقول؟ قال: بهذه الآية «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» إلى آخر الآية.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٦١

أقول: ليت شعري أين ذهب منافقو عهد النبي ص؟ و شواهد الكتاب العزيز و التاريخ تدل على أنهم ما كانوا بأقل من ثلث أهل المدينة و معظمهم بما أصدقوا الإسلام يوم رحلته (ص) أم تغيرت آراؤهم في تربصهم الدوائر و تقليبيهم الأمور؟.

[سورة النور (٢٤): الآيات ٥٨ الى ٦٤]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَ حِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالنِّسَاءُ اللَّائِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٢)

لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَ يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٦٢

(بيان)

بقية الأحكام المذكورة في السورة و تختتم السورة بآخر الآيات و فيها إشارة إلى أن الله سبحانه إنما يشرع ما يشرع بعلمه و سيظهر و سينكشف لهم حقيقته حين يرجعون إليه.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٦٣

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» إلى آخر الآية. وضع الثياب خلعها و هو كناية عن كونهم على حال ربما لا يحبون أن يراهم عليها الأجنبي. و الظهيرة وقت الظهر، و العورة السواة سميت بها لما يلحق الإنسان من انكشافها من العار و كان المراد بها في الآية ما ينبغي ستره.

فقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» إلخ، تعقيب لقوله سابقا: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا» إلخ، القاضي بتوقف دخول البيت على الإذن و هو كاستثناء من عمومه في العبيد و الأطفال بأنه يكفيهم الاستئذان ثلاث مرات في اليوم.

و قوله: «لَيْسَتْأَذِنُكُمْ أَلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» أي مروهم أن يستأذنونكم للدخول، و ظاهر الذين ملكت أيمانكم العبيد دون الإماء و إن كان اللفظ لا يأبى عن العموم بعناية التغليب، و به وردت الرواية كما سيجيء.

و قوله: «وَ أَلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ» يعني المميزين من الأطفال قبل البلوغ، و الدليل على تقيدهم بالتمييز قوله بعد: «ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ».

و قوله: «ثَلَاثُ مَرَّاتٍ» أي كل يوم بدليل تفصيله بقوله: «مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَ حِينَ تَصْعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ- أي وقت الظهر- وَ مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ»، و قد أشار إلى وجه الحكم بقوله: «ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ» أي الأوقات الثلاثة ثلاث عورات لكم لا ينبغي بالطبع أن يطلع عليكم فيها غيركم.

و قوله: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَ لَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ» أي لا مانع لكم من أن لا تأمروهم بالاستيذان و لا لهم من أن لا يستأذنونكم في غير هذه الأوقات، و قد أشار إلى جهة نفي الجناح بقوله: «طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ» أي هم كثير الطوف عليكم بعضكم يطوف على بعض للخدمة فالاستيذان كلما دخل حرج عادة فليكتفوا فيه بالعورات الثلاث.

ثم قال: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ» أي أحكام دينه التي هي آيات دالة عليه «وَ اللَّهُ عَلِيمٌ» يعلم أحوالكم و ما تستدعيه من الحكم «حَكِيمٌ» يراعي مصالحكم في أحكامه.

قوله تعالى: «وَ إِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا» إلخ، بيان أن حكم

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٦٤

الاستيذان ثلاث مرات في الأطفال معي بالبلوغ فإذا بلغ الأطفال منكم الحلم بأن بلغوا فليستأذِنوا كما استأذن الذين من قبلهم و هم البالغون من الرجال و النساء الأحرار «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

قوله تعالى: «وَ الْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً» إلى آخر الآية.

القواعد جمع قاعدة و هي المرأة التي قعدت عن النكاح فلا ترجوه لعدم الرغبة في مباشرتها لكبرها، فقوله: «اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً» وصف توضيحي، و قيل: هي التي يئست من الحيض، و الوصف احترازي.

و في المجمع:، التبرج إظهار المرأة من محاسنها ما يجب عليها ستره، و أصله الظهور و منه البرج البناء العالي لظهوره.

و الآية في معنى الاستثناء من عموم حكم الحجاب، و المعنى: و الكبائر المسنة من النساء فلا بأس عليهن أن لا يحتجبن حال كونهن غير متبرجات بريئة.

و قوله: «وَأَنْ يَسْتَغْفِرَ خَيْرٌ لَّهِنَّ» كناية عن الاحتجاب أي الاحتجاب خير لهن من وضع الثياب، و قوله: «وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» تعليل لما شرع بالاسمين أي هو تعالى سميع يسمع ما يسألنه بفطرتهن عليم يعلم ما يحتجن إليه من الأحكام.

قوله تعالى: «لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَ لَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَ لَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَ لَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ» إلى قوله- «أَوْ صَدِيقِكُمْ» ظاهر الآية أن فيها جعل حق للمؤمنين أن يأكلوا من بيوت قراباتهم أو التي أوتمنوا عليها أو بيوت أصدقائهم فهم مأذونون في أن يأكلوا منها بمقدار حاجتهم من غير إسراف و إفساد.

فقوله: «لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ» إلى قوله- «و لَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ» في عطف على أَنْفُسِكُمْ» على ما تقدمه دلالة على أن عد المذكورين ليس باختصاص الحق بهم بل لكونهم أرباب عاهات يشكل عليهم أن يكتسبوا الرزق بعمل أنفسهم أحيانا و إلا فلا فرق بين الأعمى و الأعرج و المريض و غيرهم في ذلك.

و قوله: «مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ» إلخ، في عد «بُيُوتِكُمْ» مع بيوت الأقرباء و غيرهم إشارة إلى نفي الفرق في هذا الدين المبني على كون المؤمنين بعضهم

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٦٥

أولياء بعض بين بيوتهم أنفسهم و بيوت أقربائهم و ما ملكوا مفاتحه و بيوت أصدقائهم.

على أن «بُيُوتِكُمْ» يشمل بيت الابن و الزوج كما وردت به الرواية، و قوله:

«أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ» المفاتيح جمع مفتاح و هو المخزن، و المعنى: أو البيت الذي ملكتم أي تسلطتم على مخازنه التي فيها الرزق كما يكون الرجل قيما على بيت أو وكيلاً أو سلم إليه مفاتحه.

و قوله: «أَوْ صَدِيقِكُمْ» معطوف على ما تقدمه بتقدير بيت على ما يعلم من سياقه، و التقدير أو بيت صديقكم.

قوله تعالى: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً» الأشتات جمع شت و هو مصدر بمعنى التفرق استعمل بمعنى المتفرق مبالغة ثم جمع أو صفة بمعنى المتفرق كالحق، و المعنى لا إثم عليكم أن تأكلوا مجتمعين و بعضكم مع بعض أو متفرقين، و الآية عامة و إن كان نزولها لسبب خاص كما روي.

و للمفسرين في هذا الفصل من الآية و في الفصل الذي قبلها اختلافات شديدة رأينا الصفح عن إيرادها و الغور في البحث عنها أولى، و ما أوردناه من المعنى في الفصلين هو الذي يعطيه سياقهما.

قوله تعالى: «فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً» إلخ، لما تقدم ذكر البيوت فرع عليه ذكر أدب الدخول فيها فقال: «فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً».

فقوله: «فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ» المراد فسلموا على من كان فيها من أهلها و قد بدل من قوله: «عَلَى أَنْفُسِكُمْ» للدلالة على أن بعضهم من بعض فإن الجميع إنسان و قد خلقهم الله من ذكر و أنثى على أنهم مؤمنون و الإيمان يجمعهم و يوحدهم أقوى من الرحم و أي شيء آخر.

و ليس ببعيد أن يكون المراد بقوله: «فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ» أن يسلم الداخل على أهل البيت و يرد السلام عليه.

و قوله: «تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ» أي حال كون السلام تحية من عند الله شرعها الله و أنزل حكمها ليحيي بها المسلمون و هو مبارك ذو خير كثير باق و طيب

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٦٦

يلائم النفس فإن حقيقة هذه التحية بسط الأمن و السلامة على المسلم عليه و هو أطيّب أمر يشترك فيه المجتمعان.

ثم ختم سبحانه الآية بقوله: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ» و قد مر تفسيره «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» أي تعلموا معالم دينكم فتعملوا بها كما قيل.

قوله تعالى: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ» ذكر قوله «الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ» بيانا للمؤمنين على ظهور معناه للدلالة على اتصافهم بحقيقة المعنى أي إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله و رسوله بحقيقة الإيمان و أيقنوا بتوحده تعالى و اطمانت نفوسهم و تعلقت قلوبهم برسوله.

و لذلك عقبه بقوله: «وَ إِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ» و الأمر الجامع هو الذي يجمع الناس للتدبير في أطرافه و التشاور و العزم عليه كالحرب و نحوها.

و المعنى: و إذا كانوا مع الرسول بالاجتماع عنده على أمر من الأمور العامة لم يذهبوا و لم ينصرفوا من عند الرسول حتى يستأذنه للذهاب.

و لذلك أيضا عقبه بقوله: «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ» و هو بمنزلة عكس صدر الآية للدلالة على الملازمة و عدم الانفكاك.

و قوله: «فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ» تخيير منه تعالى لرسوله في أن يأذن لمن شاء و لا يأذن لمن لم يشأ.

و قوله: «وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» أمر له بالاستغفار لهم تطيبا لنفوسهم و رحمة بهم.

قوله تعالى: «لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا» إلى آخر الآية، دعاء الرسول هو دعوته الناس إلى أمر من الأمور كدعوتهم إلى الإيمان و العمل الصالح، و دعوتهم ليشاورهم في أمر جامع، و دعوتهم إلى الصلاة جامعة، و أمرهم بشيء في أمر دنياهم أو أخرهم فكل ذلك دعاء و دعوة منه (ص).

و يشهد بهذا المعنى قوله ذيلًا: «قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا» و ما

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٦٧

يتلوه من تهديد مخالف أمره (ص) كما لا يخفى. و هو أنسب لسياق الآية السابقة فإنها تمدح الذين يلبون دعوته و يحضرون عنده و لا يفارقونه حتى يستأذنوه و هذه تدم و تهدد الذين يدعوهم فيتسللون عنه لو اذا غير مهتمين بدعائه و لا معتنين.

و من هنا يعلم عدم استقامة ما قيل إن المراد بدعاء النبي ص خطابه فيجب أن يفخم و لا يساوى بينه و بين غيره من الناس فلا يقال له: يا محمد و يا ابن عبد الله، بل: يا رسول الله.

و كذا ما قيل: إن المراد بالدعاء دعاؤه عليهم لو أسخطوه فهو نهي عن التعرض لدعائه عليهم بإسخطاه فإن الله تعالى لا يريد دعاءه هذا، و ذلك لأن ذيل الآية لا يساعد على شيء من الوجهين.

و قوله: «قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا» التسلل: الخروج من البين برفق و احتيال من سل السيف من غمده، و- اللواذ: الملاوذة و هو أن يلوذ الإنسان و يلتجئ إلى غيره فيستتر به، و المعنى: أن الله يعلم منكم الذين يخرجون من بين الناس و الحال أنهم يلوذون بغيرهم و يستترون به فينصرفون فلا يهتمون بدعاء الرسول و لا يعتنون به.

و قوله: «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» ظاهر سياق الآية بما تقدم من المعنى أن ضمير «عَنْ أَمْرِهِ» للنبي ص و هو دعاؤه، ففي الآية تحذير لمخالف أمر النبي ص و دعوته من أن تصيبهم فتنة و هي البلية أو يصيبهم عذاب أليم.

و قيل: ضمير «عَنْ أَمْرِهِ» راجع إلى الله سبحانه، و الآية و إن لم يقع فيها أمر منه تعالى لكن نهي المذكور بقوله: «لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ» إلخ، في معنى أجبوا دعاء الرسول، و هو أمر، و أول الوجهين أوجه.

قوله تعالى: «أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ» اختتام للسورة ناظر إلى قوله في مفتحتها: «سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَ فَرَضْنَاهَا وَ أَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ» فما في مختتمها كالتعليل لما في مفتحتها.

فقوله: «أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» بيان لعموم الملك و أن كل شيء

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٦٨

مملوك لله سبحانه قائم به فهي معلومة له بجميع خصوصيات وجودها فيعلم ما تحتاج إليه، و الناس من جملة ما يعلم بحقيقة حاله و ما يحتاج إليه فالذي يشرعه لهم من الدين مما يحتاجون إليه في حياتهم كما أن ما يرزقهم من المعيشة مما يحتاجون إليه في بقائهم.

فقوله: «قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ»- أي من حقيقة الحال المنبئة عن الحاجة- بمنزلة النتيجة المترتبة على الحجة أي ملكه لكم و لكل شيء يستلزم علمه بحالكم و بما تحتاجون إليه من شرائع الدين فيشرعه لكم و يفرضه عليكم.

و قوله: «وَ يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» معطوف على قوله: «مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ» أي و يعلم يوما يرجعون إليه و هو يوم القيامة فيخبرهم بحقيقة ما عملوا و الله بكل شيء عليم.

و في هذا الذيل حث على الطاعة و الانقياد لما شرعه و فرضه من الأحكام و العمل به من جهة أنه سيخبرهم بحقيقة ما عملوا به كما أن في الصدر حثا على القبول من جهة أن الله إنما شرعها لعلمه بحاجتهم إليها و أنها التي ترفع بها حاجتهم.

(بحث روائي)

في الدر المنثور،: في قوله تعالى «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَتْ آيَاتُنَا لَكُمْ آيَاتٍ أَنْ تُبَدِّلُوا وَجْهَ الدِّينِ» أخرجه سعيد بن منصور و ابن أبي شيبة و أبو داود و ابن مردويه و البيهقي في سننه عن ابن عباس قال: آية لم يؤمن بها أكثر الناس آية الإذن، و إني لأمر جاريتي هذه- لجارية قصيرة قائمة على رأسه- أن تستأذن علي.

و في تفسير القمي،: في الآية قال: إن الله تبارك و تعالى نهي أن يدخل أحد- في هذه الثلاثة الأوقات على أحد- لا أب و لا أخت و لا أم و لا خادم إلا بإذن، و الأوقات بعد طلوع الفجر و نصف النهار- و بعد العشاء الآخرة. ثم أطلق بعد هذه الثلاثة الأوقات فقال: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَ لَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ» يعني بعد هذه الثلاثة الأوقات «طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ».

و في الكافي، بإسناده عن زرارة عن أبي عبد الله (ع): في قول الله عز و جل:

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٦٩

«مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» قال: هي خاصة في الرجال دون النساء. قلت: فالنساء يستأذن في هذه الثلاث ساعات؟ قال: لا و لكن يدخلن و يخرجن «وَ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ» قال: من أنفسكم، قال عليكم «١» استيذان- كاستيذان من قد بلغ في هذه الثلاث ساعات.

أقول: و روي فيه روايات أخرى غيرها في كون المراد بالذين ملكت أيمانكم الذكور دون الإناث عن أبي جعفر و أبي عبد الله (ع).

و في المجمع،": في الآية: معناه مروا عبيدكم و إماءكم- أن يستأذنوا عليكم إذا أرادوا الدخول- إلى موضع خلواتكم عن ابن عباس- و قيل:

أراد العبيد خاصة عن ابن عمر":

و هو المروي عن أبي جعفر و أبي عبد الله (ع).

أقول: و بهذه الأخبار و بظهور الآية يضعف

ما رواه الحاكم عن علي (ع) في الآية قال: النساء فإن الرجال يستأذنون.

و في الدر المنثور، أخرج ابن أبي شيبة و ابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ص: لا تغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم العشاء- فإنما هي في كتاب الله العشاء و إنما يعتنم بحلاب الإبل.

أقول:

و روي مثله عن عبد الرحمن بن عوف و لفظه: أن رسول الله ص قال: لا يغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم- قال الله: «و مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ» و إنما العتمة عتمة الإبل.

و في الكافي، بإسناده عن حريز عن أبي عبد الله (ع): أنه قرأ «أن يضعن من ثيابهن» قال: الجلباب و الخمار إذا كانت المرأة مسنة.

أقول: و في معناه أخبار أخرى.

و في الدر المنثور، أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عن الضحاک قال: "كان أهل المدينة قبل أن يبعث النبي ص- لا يخالطهم في طعامهم أعمى و لا مريض و لا أعرج- لأن الأعمى لا يبصر طيب الطعام، و المريض لا يستوفي الطعام كما يستوفي الصحيح، و الأعرج لا يستطيع المزاحمة على الطعام- فنزلت رخصة في مؤاكلتهم.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٧٠

و فيه، أخرج الثعلبي عن ابن عباس قال: "خرج الحارث غازيا مع رسول الله ص- و خلف على أهله خالد بن زيد- فخرج أن يأكل من طعامه و كان مجهودا فنزلت.

و فيه، أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبي حاتم عن قتادة قال: "كان هذا الحي من بني كنانة بن خزيمه- يرى أحدهم أن عليه مخزاة أن يأكل وحده في الجاهلية- حتى أن كان الرجل يسوق الذود الحفل و هو جائع- حتى يجد من يؤاكلة و يشاربه فأنزل الله: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً».

أقول: و في معنى هذه الروايات روايات أخر.

و في الكافي، بإسناده عن زرارة عن أبي عبد الله (ع): في قول الله عز و جل:

«أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ» قال: هؤلاء الذين سمى الله عز و جل في هذه الآية- يأكل بغير إذنهم من التمر و المأدوم- و كذلك تطعم المرأة من منزل زوجها بغير إذنه- فأما ما خلا ذلك من الطعام فلا.

و فيه، بإسناده عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر (ع) قال: قال رسول الله ص لرجل: أنت و مالك لأبيك، ثم قال أبو جعفر (ع): و ما أحب له أن يأخذ من مال ابنه- إلا ما احتاج إليه مما لا بد له منه- إن الله لا يحب الفساد.

و فيه، بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله (ع) قال: سألته عن رجل لابنه مال فيحتاج الأب قال: يأكل منه فأما الأم فلا تأكل منه إلا قرضا على نفسها.

و فيه، بإسناده عن جميل بن دراج عن أبي عبد الله (ع) قال: للمرأة أن تأكل و أن تصدق- و للصديق أن يأكل من منزل أخيه و يتصدق.

و فيه، بإسناده عن ابن أبي عمير عن ذكره عن أبي عبد الله (ع): في قول الله عز و جل: «أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاحَهُ» قال: الرجل يكون له وكيل يقوم في ماله- فيأكل بغير إذنه.

و في الجمع،": في قوله تعالى: «أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ»، و قيل معناه من بيوت أولادكم- و يدل عليه

قوله (ع) أنت و مالك لأبيك

قوله (ع): إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه- و إن ولده من كسبه.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص: ١٧١

أقول: و في هذه المعاني روايات كثيرة أخرى.

و في المعاني، بإسناده عن أبي الصباح قال: سألت أبا جعفر (ع) عن قول الله عز و جل: «فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ» الآية- فقال: هو تسليم الرجل على أهل البيت حين يدخل- ثم يردون عليه فهو سلامكم على أنفسكم.

أقول: و قد تقدمت الإشارة إلى هذا المعنى في تفسير الآية.

و في تفسير القمي،": في قوله تعالى: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ- إلى قوله- حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا» فإنها نزلت في قوم كانوا إذا جمعهم رسول الله ص- لأمر من الأمور في بعث يبعثه أو حرب قد حضرت- يتفرقون بغير إذنه فنهاهم الله عز و جل عن ذلك.

و فيه،": في قوله تعالى: «فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ- فَأَذَّنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ» قال: نزلت في حنظلة بن أبي عياش- و ذلك أنه تزوج في الليلة التي كان في صبيحتها حرب أحد- فاستأذن رسول الله ص أن يقيم عند أهله- فأنزل الله عز و جل هذه الآية «فَأَذَّنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ» فأقام عند أهله- ثم أصبح و هو جنب فحضر القتال فاستشهد، فقال رسول الله ص: رأيت الملائكة تغسل حنظلة- بماء المزن في صحائف فضة بين السماء و الأرض- فكان يسمى غسيل الملائكة.

و فيه،": في قوله تعالى: «لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا» قال:

لا تدعوا رسول الله ص كما يدعو بعضكم بعضا

، و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (ع): في قوله عز و جل: «لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا»، يقول:

لا تقولوا: يا محمد و لا يا أبا القاسم- لكن قولوا: يا نبي الله و يا رسول الله:

أقول: و روي مثله عن ابن عباس

، و قد تقدم أن ذيل الآية لا يلائم هذا المعنى تلك الملائمة.

